تيموثي سنايدر

عن الطُّغيان

عشرون درسًا في مقاومة الطغيان

ترجمة: محمد زاهد

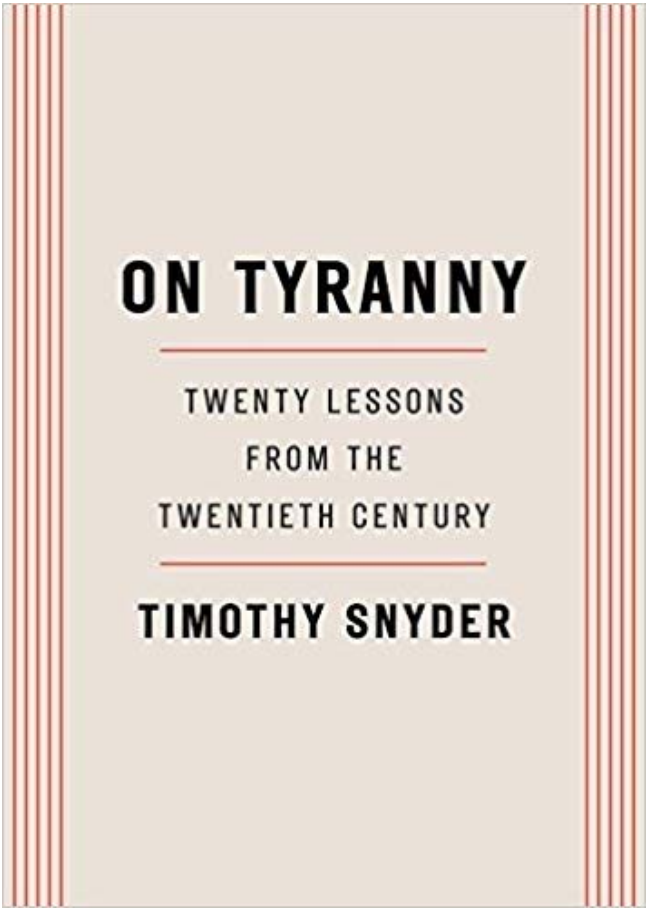
ON TYRANNY
TWENTY LESSONS
FROM THE
TWENTIETH CENTURY
TIMOTHY SNYDER

مقدمة المترجم

هذا الكتاب الذي بين يديك كان له صدى واسع عند القراء في أمريكا، فقد بقي ٦ أشهر على قائمة أكثر الكتب مبيعًا في صحيفة نيويورك تايمز، ونوه به المعلقون السياسيون في الصحف ووسائل الإعلام الأمريكية واستضافوا الكاتب البروفسور تيموثي سنايدر للحديث عنه، وقد تابعتهم في ذلك بعض الصحف والمواقع العربية فتحدثت عن الكتاب ومحتوياته، وقد ترجمتُه ليستفيد منه القارئ العربي في البلاد العربية على اختلاف تقدمها – أو تراجعها – نحو نوع من أنواع الحكم الرشيد القائم بحق على الحرية والقانون.

وينبغي أن نشير أن البروفسور سنايدر كتب كتابه للمواطن الأمريكي وبعد انتخاب الرئيس ترمب، ولذا نجده

في استشهاداته ومراجعاته التاريخية يستحضر التاريخ الأوروبي والأمريكي ولا يتحدث – مثلا – عن تجربة دول أمريكا اللاتينية أو الهند في الدكتاتورية أو الديمقراطية.

وحينما يتحدث المؤلف عن الحاضر فإن محور حديثه هو انتخاب دونالد ترمب رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية بأساليب انتخابية ابتعدت كثيراً عن المألوف في الانتخابات الأمريكية، وحامت حولها شبهات لا تزال تشوبها إلى اليوم، وجاءت بحكومة لم تشهد لها أمريكا مثيلاً من قبل في أسلوب الحكم، ويكفى أن نشير هنا إلى تغريدات البيت الأبيض وإلى العدد غير المسبوق من الوزراء وموظفي البيت الأبيض الذين استقالوا أو أقيلوا.

وحين يستشرف الكاتب المستقبل فإنه يتفحص التدافع الاجتماعي والسياسي في أمريكا، ويخشى أن تؤول الأمور بنظام الحكم الأمريكي ليصبح قريبًا جداً من الحكم

المستبد ولكن في لباس ديمقراطي، وذلك بسبب وجود زعيم ذي شخصية طاغية يدغدغ النزعة الشعبوية لدى المواطن الأمريكي البسيط، ويريد أن يستغلها في حكم البلاد مبتعداً أشد الابتعاد عن نمط الحكم المتعارف عليه في أمريكا والضوابط والتوازنات التي بني عليها.

وقد يستغرب بعض القراء حديث المؤلف عن مقاومة الاستبداد والطغيان بالنظر للتاريخ العريق لحكومات الولايات المتحدة الأمريكية في تشجيع الاستبداد ورعاية الطغيان في بلداننا العربية وغيرها من بلدان العالم، ولكن هذا الاستغراب لا ينبغي أن يحول بيننا وبين الاستفادة من العبر التي يقدمها لنا الكتاب، بل إن الكتاب في تحذيره للمواطن الأمريكي من تحكم المصالح الخاصة بدولته وتحفيزه له على التحرك والعمل قد يكون خطوة على طريق - لا يزال طويلاً - نحو قيام حكومة أمريكية

تمثل طموحات ومثاليات المواطن الأمريكي العادي على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ولذا فقد لا يكون الكتاب مطابقًا لتصوراتنا في العالم العربي وبخاصة ما يتعلق بالطغيان ومقاومته، والدروس العشرون التي يقدمها المؤلف ليست غريبة كل الغرابة على القارئ العربي، فقد تنبه لها كثيرون، وطالبوا بشيء من الديمقراطية والشورى في مراحل مختلفة من تاريخ بلدانهم، فانتهى الأمر بهم في السجون والمنافي وعلى أعواد المشانق، وهكذا تجاوزت الغالبية العظمى من العرب هذه المرحلة بفضل التقدم الذي رأيناه في السنوات القليلة الماضية، وأصبح العرب في ظل حكومات "رشيدة" وزعامات حكيمة "خالدة"، تسعى ليل نهار لمصلحة وحماية الوطن والمواطن، وتستنفر لأجلها أسرة الزعيم وأقاربه وعشيرته وشركاءه وأصدقاءه، يعملون في الجيش والأمن والشرطة والاقتصاد والتعليم وكل نواحي الحكومة، كلٌ بحسب قربه

من القيادة وإخلاصه لأهدافها، ولأن الحكومات العربية أتت بها العناية الإلهية والإرادة الشعبية، ومعها تفويض مطلق دائم، فلن يترك الحاكم العربي أمانة الحكم الذي تولاه إلا حين توافيه منيته، ولكن في أيد "أمينة" مخلصة تسير على نهجه وتتابع مسيرته.

غير أن الكتاب في استعراضه لحالات صعود الطغيان في العالم الغربي وفي تخوفه من انحدار أمريكا إليها يقدم لنا بعض الدروس الجوهرية في مسيرة الحكم الرشيد القائم على الحرية والشورى والمصالح الوطنية، وأشير إلى ثلاثة منها.

الدرس الأول هو أن الطغيان ظاهرة بشرية لا تختص بعرق دون عرق ولا يحول دونه التقدم التقني ولا الحضارة المادية ولا وجود المؤسسات الديمقراطية، وقد رأيناه يستبد بحكم ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية حينما كانت

أكثر دول العالم تقدمًا ونجاحًا، وهكذا فإن الزعم أن العنصر العربي لا يصلح للحكم الديمقراطي إنما هو زعم عنصري بغيض يهدف لبقاء الحكم المستبد وإراحة المواطن من التفكير والتدبير، ويريد ترسيخ القناعة لديه بتخلفه وتخلف أقرانه من المواطنين.

فإذا وجدت أيها القارئ العزيز ما يسرده المؤلف أمراً قد عشته أو تعيشه أو من المؤكد أنك ستتمتع به عن قريب، فلتكن سلواك أنك لست وحيداً في ذلك، فقد سبقتك في التمتع بأفضال الاستبداد شعوب كثيرة متقدمة في الحضارة والتقنية وعلى رأسها الشعب الألماني العريق.

الدرس الثاني هو أن أساس الديمقراطية المستديمة هو إيمان المجتمعات التي يتشكل منها الوطن بالعمل الجماعي والتعاون المشترك لتحقيق الصالح العام، وأن

تتجاوز في تفكيرها الحواجز والفروقات القبلية والطائفية والطبقية، لتجتمع وتتحرك بدلاً من أن تتناحر وتتفرق.

الدرس الثالث هو أهمية الحفاظ على الحرية وحكم القانون والتصدي لأية محاولة تتنقصهما مهما تسترت تحت ذرائع أو مسميات حقيقية كانت أم مزيفة، لأن الحرية والعدالة كلٌ لا يتجزأ فإذا أنقص منها شيء كان ذلك أول نهايتها.

أرجو أن يجد القارئ العربي في هذا الكتاب ما ينير طريقه ويحفزه على متابعة طموحه ليحصل على حقه في العيش في ظلال العدل والحرية مهما طال الطريق وكلف الثمن، وإن غداً لناظره قريب.

تورونتو - أبريل ٢٠١٨

مقدمة

التاريخ والطغيان

التاريخ لا يتكرر ولكنه يعلِّم، وقد كان هذا حاضراً في أذهان الآباء المؤسسين عندما ناقشوا صياغة دستور الولايات المتحدة الأمريكية، فقد استمدوا دروسهم من التاريخ الذي عرفوه، وتوجسوا خيفة أن تنهار يومًا ما الجمهورية الديموقراطية التي كانوا يرسون قواعدها، ولذا راجعوا تاريخ الديمقراطيات والجمهوريات القديمة وكيف انحدرت إلى دول يدور الحكم فيها على نخبة متسلطة (أوليغارشية) تستغلها لمصالحها الشخصية أو أضحت في يد حاكم فرد مطلق الصلاحية، ووضع مؤسسو أمريكا نصب أعينهم تحذير أرسطو أن عدم المساواة سيجلب عدم

الاستقرار، وقول أفلاطون إن الطُغام يستغلون حرية التعبير لنصب أنفسهم كطواغيت.

وفي مسعاهم لتأسيس جمهورية ديمقراطية على القانون وإنشاء نظام من الضوابط والتوازنات، أراد الآباء المؤسسون أن يجنبوا البلاد الشر الذي وصفوه، مثل الفلاسفة القدماء، بالطغيان، وكان أكثر ما أقلقهم أن يغتصب السلطة فرد واحد أو مجموعة، أو أن يتحايل أهل الحكم على القانون لمصلحتهم الخاصة، وتولد عن ذلك أن النقاش السياسي في الولايات المتحدة تركز على مشكلة الطغيان داخل المجتمع الأمريكي وبخاصة قضايا العبيد والنساء.

وقد أصبح من التقاليد الأمريكية العريقة أن نتدبر التاريخ عندما يبدو نظامنا السياسي معرضاً للخطر، وإذا كنا قلقين اليوم من أن تجربة الحكم الأمريكية مهددة بأن تؤول

إلى الطغيان، فلا أقل من أن نحذو حذو الآباء المؤسسين وأن نتأمل تاريخ الديمقراطيات والجمهوريات الأخرى، ومما يجعل مهمتنا أسهل أننا نستطيع الاستفادة من أمثلة حديثة ومطابقة أكثر من أمثلة اليونان القديمة وروما، ولكن ما يعقِّد الأمور هو أن تاريخ الديمقراطية الحديثة هو أيضا تاريخ يشوبه التدهور والسقوط.

ومنذ أن أعلنت المستعمرات الأمريكية استقلالها عن النظام الملكي البريطاني الذي اعتبره المؤسسون استبداديا، شهد التاريخ الأوروبي ثلاث محطات ديمقراطية رئيسية: بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٨، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥، وبعد سقوط الشيوعية في عام ١٩٨٩، وقد فشلت العديد من الديمقراطيات التي تأسست في ظل هذه الأحداث، في ظروف تشبه الظروف التي تمر بها أمريكا في عدد من الجوانب الهامة.

وكما يزيدنا التاريخ معرفة بالماضي فإنه يقدم لنا نُذر الخطر حول المستقبل. وفي أواخر القرن التاسع عشر، كما حدث في أواخر القرن العشرين، ولّد توسع التجارة العالمية توقعات بالتقدم والازدهار، وفي أوائل القرن العشرين، كما في أوائل القرن الحادي والعشرين، واجهت هذه الآمال تحديات تمثلت في سياسات شعبوية قدمت رؤى جديدة تقوم على زعم زعيم أو حزب أنه وحده يمثل إرادة الشعب، وهكذا شهدنا انهيار الديمقراطيات الأوروبية في مواجهة التسلط والفاشية اليمينية في سنوات ١٩٢٠–١٩٣٠، ونجاح الاتحاد السوفييتي الشيوعي، الذي أنشئ في عام ١٩٢٢، في أن ينقل نموذجه إلى أوروبا في أربعينيات القرن العشرين.

إن التاريخ الأوروبي في القرن العشرين يظهر لنا أن المجتمعات يمكن أن تتفتت، وأن الديمقراطيات يمكن أن تسقط، وأن الأخلاق يمكن أن تنهار، وأن الناس العاديين يمكن أن يجدوا أنفسهم يقفون والبنادق في أيديهم على

خنادق الموت الملأى بجثث ضحاياهم، ولذا أصبح من الضروري اليوم أن نفهم كيف ولماذا حدث ذلك كله.

كانت كل من الفاشية والشيوعية ردوداً على العولمة في تلك الحقبة وعلى ما جلبته من عدم المساواة، الحقيقي منها والمتخيل، وعلى الضعف الواضح للديمقراطيات في التصدي لآثار العولمة، فرفض الفاشيون المنطق باسم إرادة الشعب، وأنكروا الحقائق الملموسة ليُحلّوا محلها أساطير أمجاد صاغها زعماء ادعوا أنهم هم الذين يمثلون صوت الشعب، وصوروا العولمة والتحديات المعقدة التي أتت بها على أنها مؤامرة ضد الأمة.

وقد حكم الفاشيون لمدة عقد أو اثنين ثم غادروا تاركين وراءهم إرثا فكريا لم يمسه التغير ويزداد ما يمكن أن يلعبه في ظل ظروفنا الراهنة، أما الشيوعيون فحكموا لفترة أطول، فقد دام حكمهم قرابة ٧٠ سنة في الاتحاد

السوفيتي وأكثر من ٤٠ سنة في أغلب أوروبا الشرقية، وأقاموا في أثنائها حكما يقوم على نخبة حزبية منضبطة تحتكر المنطق وتوجه المجتمع نحو المستقبل المنشود وفقا للحتمية التاريخية التي افترضوا أنها ثابتة لا تتغير.

وقد نميل إلى الاعتقاد أن تقاليدنا الديمقراطية تمنحنا مناعة ذاتية ضد أمثال هذه الأخطار، ولكن ذلك رد فعل عفوي خاطئ، ويقتضي المنطق السليم منا أن نكرر المبادرة التي قام بها الآباء المؤسسون، وأن نتفحص التاريخ لنفهم المنابع العميقة للطغيان، ولنُعِدَّ الردود المناسبة لها، ولن يكون الأميركيون اليوم أكثر حكمة من الأوروبيين الذين شهدوا في القرن العشرين كيف أدبرت الديمقراطية أمام الفاشية والنازية والشيوعية، والمزية الوحيدة التي نتمتع بها هي أننا نستطيع أن نتعلم من تجربتهم، وأنه لا يزال لدينا الوقت لنبادر بذلك دون أي مماطلة.

ومن أجل ذلك يقدم هذا الكتاب عشرين درسا من دروس التاريخ القرن العشرين، مع تعديلها لتلائم ظروف الوقت الراهن.

١. لا للطاعة العمياء

يحصل المستبدون على معظم سلطاتهم دون أي مقابل، وذلك لأن كثيراً من المواطنين يستشرف مع بداية الاستبداد ما تريده الحكومة عندما ستصبح أكثر قمعا، ثم يقدمونه لها طواعية وقبل أن تطلبه منهم، وإن المواطن الذي يتكيف بهذه الطريقة مع الاستبداد يبين للمستبد ما يستطيع الحصول عليه بأقل التكاليف.

إن الطاعة الاستباقية العمياء كارثة سياسية، فالمتسلطون لا يعرفون في بداية تسلطهم إن كان المواطنون على استعداد لتقديم تنازلات حول هذه القضية أو ذلك المبدأ، وفي البداية قد لا يكون لدى النظام الجديد الوسائل المباشرة للتأثير على المواطنين بطريقة أو بأخرى، وقد رأينا هذا فيما حدث بعد الانتخابات الألمانية عام ١٩٣٢، والتي فاز فيها أدولف هتلر وشكَّل بعدها حكومته، ورأيناه كذلك

بعد انتخابات تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٦ حين انتصر الشيوعيون، فقد كان التحول الكبير حين بدأ المواطنون بتقديم الطاعة العمياء، ولما رأى النازيون والشيوعيون أن جمهوراً لا يستهان به من الناس ساروا وراءهم كالقطعان، أدركوا أنهم يستطيعون التحرك بسرعة نحو تغيير كامل للنظام. إن هذه الطاعة العمياء أول مظاهر الخنوع التي لا يمكن التراجع عنها!

وفي أوائل عام ١٩٣٨، استتبت السلطة لأدولف هتلر في ألمانيا، وبدأ يهدد بضم النمسا المجاورة، وبعد قبول مستشار النمسا بهذا الضم، أظهر جمهور غفير من النمساويين الطاعة الاستباقية العمياء التي أدت إلى رمي يهود النمسا في بوتقة الاضطهاد، فقد اعتقل النازيون النمساويون سكان مناطقهم من اليهود، وأجبروهم على تنظيف الشوارع لإزالة رموز استقلال النمسا، وحدث التحول الحاسم عندما وقف النمساويون من غير النازيين

إزاء ذلك موقف المتفرج المتسلي، وكانت لدى النازيين قوائم للممتلكات اليهودية سرقوا منها ما استطاعوا في ظل الحكم الهتلري، وكانت اللحظة المفصلية حين شاركهم في السرقة آخرون لم يكونوا من النازيين، وقالت عن ذلك في مذكراتها عالمة السياسة النمساوية حنّة أرندت: عندما غزت القوات الألمانية البلاد، وبدأ غير اليهود في نهب منازل جيرانهم اليهود، بدأ اليهود النمساويون في الانتحار.

هذه الطاعة الاستباقية العمياء التي قدمها النمساويون في مارس ١٩٣٨ جعلت القيادة النازية العليا تدرك إلى أي مدى تستطيع أن تمضي في تحقيق طموحاتها، وأعقب ذلك في أغسطس ١٩٣٨ أن أنشأ أدولف أيخمان في فيينا المكتب المركزي لتهجير اليهود، وفي نوفمبر ١٩٣٨ اقتدى النازيون الألمان بما حدث في النمسا في شهر مارس المنصرم، ونظموا على صعيد ألمانيا كلها المذبحة المعروفة باسم

ليلة الزجاج، لكثرة ما حطموا فيها من الواجهات الزجاجية للمحلات التي يملكها اليهود.

وعندما قامت ألمانيا بغزو الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤١، لم تنتظر قوات الأمن الخاص النازية أوامر القيادة، بل بادرت في استنباط أساليب القتل الجماعي، لقد قدروا ما يريده رؤساؤهم وأظهروا أن ذلك كان ممكنًا، وقد كان الممكن أكثر بكثير مما توقعه هتلر!

تعني الطاعة الاستباقية التكيف الغريزي - ودون تفكير - مع الوضع الجديد في أول بداياته، والسؤال هو: هل الألمان وحدهم من يفعل مثل هذه الأشياء؟ لقد درس ستانلي ميلجرام عالِم علم النفس في جامعة ييل الفظائع النازية، وتوجه لتفسير تصرف الألمان آنذاك بوجود نزعة ذاتية تسلطية لدى الفرد الألماني، وصمم ميلجرام تجربة لاختبار نظريته، ولكن ألمانيا رفضت السماح له بإجرائها

على مواطنيها وفي أراضيها، فأجراها في جامعة ييل سنة ١٩٦١، في نفس الوقت تقريباً الذي كان فيه أدولف أيخمان يُحاكم في القدس لدوره في المحرقة النازية لليهود.

وأخبر ميلجرام المشاركين في التجربة، وكان بعضهم من طلاب جامعة ييل وبعضهم من الأهالي في نيوهيفن، أنهم سيشاركون في تجربة حول التعلم، وقسَّم ميلجرام المشاركين إلى قسمين: القسم الأول سيسلط الصدمات الكهربائية على المشاركين الآخرين، والقسم الثاني سيتلقى الصدمة، وفي الحقيقة كان ذلك ترتيباً ظاهرياً لأن الأسلاك لن تكون موصولة بالكهرباء، وكان على مشاركي القسم الثاني أن يتظاهروا بتلقيهم الصدمة والشكوى منها.

وكانت نتيجة التجربة مرعبة للغاية، فالأشخاص الذين اعتقدوا أنهم يسلطون الصدمات الكهربائية، استمروا في تسليطها مستجيبين لأوامر ميلجرام رغم الاحتجاج

الظاهري من أفراد الطرف المتلقي ودقهم على الحاجز الزجاجي وأنينهم وشكواهم من ألم القلب، واستمر أفراد القسم الأول في زيادة مقدار الكهرباء المسلّطة على مشاركين لا يعرفونهم ولا يحملون أي ضغينة تجاههم، حتى بدا أن ضحاياهم ماتوا أو أضحوا على وشك الموت، وحتى أولئك الذين لم يمت ضحاياهم أنهوا التجربة وغادروا دون اكتراث بالسؤال عن حالة المشاركين الآخرين.

واستنتج ميلغرام من هذه التجربة أن الناس يتقبلون القواعد الجديدة تقبلاً كبيرا إذا هم أضحوا في بيئة مختلفة، وأذهله أن يكونوا مستعدين لإلحاق الأذى وقتل الآخرين خدمة لبعض الأهداف المستجدة إذا أمرتهم بذلك السلطة الجديدة. وعلق ميلجرام على ذلك قائلاً: لقد وجدت مقداراً مذهلاً من الطاعة العمياء أصبحت معه لا أرى لزومًا لإجراء التجربة على الألمان.

٢. لندافع عن مؤسساتنا

إن المؤسسات هي التي تضفي على المجتمعات صبغة الاحترام، وهذه المؤسسات تحتاج إلى تأييدنا وحمايتنا كذلك، ولا يحق لنا أن نتحدث عن "مؤسساتنا" إلا إذا كنا ننتمي إليها حقًا من خلال عملنا بالنيابة عنها، فهذه المؤسسات لا تحمي نفسها، وستسقط واحدة تلو الأخرى ما لم نهب للدفاع عنها من أول لحظة، وعلى كلٍّ منا أن يختار المؤسسة التي يهتم بها ويقف إلى جانبها بالتأييد والحماية سواء كانت محكمة أو جريدة أو تشريعًا أو نقابة عمالية.

ويميل الناس إلى افتراض أن المؤسسات ستدافع عن نفسها من تلقاء ذاتها ضد أغلب الهجمات التي تستهدفها، وهو ذاته الخطأ الذي ارتكبه بعض اليهود الألمان حول هتلر والنازيين بعد أن شكلوا الحكومة في ٢

فبراير ١٩٣٣، وعلى سبيل المثال، نشرت صحيفة يهودية ألمانية بارزة افتتاحية تعبر عن هذه الثقة التي لم تكن في محلها، فقالت: إننا لا نوافق على الرأي القائل أن السيد هتلر ورفاقه الذين وصلوا أخيراً إلى السلطة التي طالما تطلعوا إليها، سينفذون المقترحات المتداولة في [الصحف النازية]، مثل حرمان اليهود الألمان اعتباطًا من حقوقهم الدستورية، أو حصرهم في أحياء مغلقة خاصة باليهود (الغيتو)، أو أن يعرضوهم لنزوات الحسد من مجرمي الغوغاء. إنهم لا يستطيعون فعل ذلك لوجود عدد من العناصر المؤثرة التي توازن ما يتمتعون به من قوة... ومن الواضح أنهم لا يريدون أن يسيروا على هذا الطريق، لأن المرء عندما يتصرف وفقًا لمعايير السياسة الأوروبية فإنه عمومًا يتوجه لإظهار أفضل ما لديه من أخلاق، ويبتعد عن اجترار توجهاته السابقة التي كان عليها وهو في المعارضة.

وكانت تلك وجهة نظر عديد من العقلاء في عام ١٩٣٣، تمامًا كما هي وجهة نظر عديد من العقلاء اليوم، ومكمن الخطأ فيها هو افتراض أن الحكام الذين جاءوا إلى السلطة من خلال المؤسسات لا يمكنهم تغيير هذه المؤسسات أو تدميرها، حتى عندما يكون هذا هو بالضبط ما أعلنوا أنهم سيفعلونه، وفي بعض الأحيان ينوي الثوار تدمير المؤسسات دفعة واحدة، كما كان نهج البلاشفة الروس، وفي أحيان أخرى يتم حرمان المؤسسات من طاقاتها ومهامها حتى تذوي وتصبح مجرد صورة فارغة لما كانت عليه في السابق وتنسجم مع النظام الجديد بدلاً من مقاومته. وهذا ما سماه النازيون الإخضاع Gleichschaltung.

ولم يستغرق توطيد النظام النازي الجديد سوى أقل من عام، وبحلول نهاية عام ١٩٣٣ أصبحت ألمانيا دولة الحزب الواحد الذي تتضاءل أمامه جميع مؤسسات الدولة،

وفي شهر نوفمبر، أجرت السلطات الألمانية انتخابات برلمانية غابت عنها المعارضة، وشملت استفتاءً لإسباغ الشرعية على النظام الجديد كانت الإجابة "الصحيحة" معروفة فيه، وصوّت فيه بعض اليهود الألمان، لأن الزعماء النازيين أرادوا ذلك، وكان اليهود يأملون أن تثمر هذه المشاركة والولاء الرمزي في أن يستوعبهم النظام الجديد، وكان ذلك سرابًا في صحراء النازية القاحلة.

٣. احذر دولة الحزب الواحد

إن الأحزاب التي أعادت ترتيب الأنظمة وقمعت المنافسين لم تكن لتستطيع ذلك منذ البداية، بل استغلت حدوث منعطف تاريخي لتخرج خصومها من الحياة السياسية، ولذا على المواطن أن يدعم تعدد الأحزاب في نظام الحكم، وأن يحمي قواعد الانتخابات الديمقراطية من التدخل والتلاعب، وأن يصوت في الانتخابات على كل المستويات، وعليه كذلك أن يفكر في الترشح للمناصب.

وينسب إلى الرئيس توماس جيفرسون قوله: إن اليقظة الدائمة هي ثمن الحرية. وهناك من ينفي أن يكون جيفرسون قال ذلك، وسواء قال ذلك أم لم يقله، فإن معاصريه الأمريكيين قالوا ذلك بالتأكيد، وعندما يتردد هذا القول اليوم يتبادر إلى أذهاننا وجوب اليقظة والتنبه تجاه الآخرين في الخارج من أعداء ومضلَلين، ونرى أنفسنا في

قلعة فوق التل تشكل معقل الديمقراطية، ونراقب من أسوارها التهديدات التي تأتي من الخارج، وفي الحقيقة فإن مغزى هذا القول مختلف تماما: إن فهم الطبيعة البشرية يقتضى أن الديمقراطية الأمريكية يجب الدفاع عنها إزاء الأمريكيين الذين سيستغلون حرياتهم من أجل القضاء عليها. وفي الواقع فقد كان المؤيد لإلغاء عقوبة الإعدام ويندل فيليبس هو الذي قال: إن اليقظة الدائمة هي ثمن الحرية. وأضاف فيليبس متحدثًا عن أهمية الممارسة الشعبية: إن ثمار الحرية الشعبية يجب قطافها كل يوم وإلا فستفسد.

لقد أكد تاريخ الديمقراطية الأوروبية الحديث صدق هذه الكلمات، فقد شهد القرن العشرون محاولات جادة لتوسيع نطاق التطبيق الديمقراطي وإنشاء ديمقراطيات صامدة، ورغم ذلك فإن الديمقراطيات التي نشأت بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، قد انهارت في الغالب

عندما استولى حزب واحد على السلطة من خلال أحداث تختلط في ملامحها الانتخابات بالانقلابات العسكرية، وكان الحزب يقوم بتغيير النظام بحافز من فوزه في الانتخابات أو بُنيته الفكرية، أو كلاهما، وعندما حقق الفاشيون أو النازيون أو الشيوعيون نتائج جيدة في الانتخابات التي جرت في الثلاثينات أو الأربعينات، تلا ذلك أن استخدموا في الساحة السياسية أساليب القمع وتكتيكات قضم فئات المعارضة واحدة تلو الأخرى، واستطاعوا بذلك تشتيت الرأي العام، وسجنوا بعض المحتجين، وجعلوا من المعارضة أقلية معزولة.

يقول البطل في رواية للقاص البريطاني ديفيد لودج: إنك لا تعرف، عندما تلتقي بحبيبك للمرة الأخيرة أنها المرة الأخيرة. وقد أضحى التصويت في الانتخابات كذلك، وقد يكون بعض الألمان الذين صوتوا لصالح الحزب النازي عام ١٩٣٢ قد أدركوا دون شك أن هذه قد تكون آخر

انتخابات حرة حقيقية يشهدونها، ولكن معظمهم لم يدرك ذلك، وربما أدرك بعض التشيك والسلوفاك الذين صوتوا لصالح الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في عام ١٩٤٦ أنهم كانوا يصوتون من أجل إنهاء الديمقراطية، ولكن معظمهم افترض أنه ستكون لديهم فرصة أخرى، ولا شك أن الروس الذين صوتوا في عام ١٩٩٠ لم يفكروا في أن هذه ستكون آخر انتخابات حرة ونزيهة في تاريخ بلادهم، ولا تزال حتى الآن.

إن أية انتخابات يمكن أن تكون الأخيرة، على الأقل الأخيرة في حياة الناخب الذي يدلي بصوته، فقد بقي النازيون في السلطة إلى أن خسروا حربا عالمية في عام ١٩٤٥، وبقي الشيوعيون التشيكوسلوفاك حتى انهار نظامهم في عام ١٩٨٩، وبعد انتخابات عام ١٩٩٠ فإن النخبة الحاكمة الروسية التي تأسست بعدها لا تزال على

رأس الحكم وتروج سياسة خارجية تهدف إلى تدمير الديمقراطية في كل مكان.

هل يمكن إسقاط الدروس التاريخية للاستبداد على الولايات المتحدة؟ لا شك أن الأمريكيين الأوائل الذين تحدثوا عن "اليقظة الدائمة" كانوا يعتقدون ذلك، فإن النظام الذي ابتكروه يدور حول تلافي عواقب نقائصنا البشرية الحقيقية لا الاحتفاء بكمالنا الخيالي، وإن الأمريكيين يواجهون بكل تأكيد، كما فعل الإغريق القدامى، مشكلة سيطرة النخبة الحاكمة والمتحكمة، والتي يزداد خطرها مع العولمة وما نتج عنها من اتساع الفجوة بين الفقراء وبين الأغنياء، أضف إلى ذلك أن لدى كبار الأثرياء قوة تصويتية أكثر بكثير من المواطنين الآخرين نتيجة لتفرد أمريكا بالفكرة القائلة إن إعطاء المال للحملات السياسية ما هو إلا ممارسة لحرية التعبير، نعم، نحن نعتقد أن لدينا ضوابط وتوازنات، ولكننا لم نواجه من قبل وضعاً مثلما

نحن عليه اليوم: عندما يتحكم الطرف الأقل شعبية بكل مفاصل القوى على المستوى الفيدرالي، وكذلك أغلبية مجالس نواب الولايات، ومن شأن الحزب الذي يمارس مثل هذا التحكم ألا يتبنى إلا عددا قليلاً من السياسات التي تحظى بقبول واسع في المجتمع ككل، وستكون أغلب سياساته لا تحظى بشعبية بشكل عام، وبالتالي فإنه يتوجس من الديمقراطية أو يريد إضعافها.

وكان لدى الأمريكان القدامى مثلٌ يقول: عندما تنتهي الانتخابات السنوية، يبدأ الطغيان. فهل يا ترى سننظر بعد سنوات ونرى انتخابات ٢٠١٦ كما يرى الروس انتخابات عام ١٩٩٠، أو التشيك انتخابات عام ١٩٤٦، أو الألمان انتخابات ١٩٣٢؟ إن ذلك، في الوقت الراهن، يعتمد علينا، فهناك كثير مما يجب عمله لإصلاح نظام الانتخابات غير المتوازن، حتى يكون لكل مواطن صوت واحد متساوٍ، ويستطيع المواطنون بكل يسر تعداد

الأصوات التي حملتها صناديق الانتخاب، ونحن بحاجة إلى صناديق الاقتراع الورقية لا الإلكترونية، لأنه لا تمكن قرصنتها والتلاعب بها عن بعد، ويمكن أن يُعاد عدها دائما، وينبغي أن يشمل ذلك الانتخابات البلدية وانتخابات الولاية، وما من شك في أن انتخابات عام ٢٠١٨، على افتراض أنها ستجري، ستضع التقاليد الأمريكية على المحك، ولذا فإن لدينا الكثير مما ينبغي علينا فعله حتى ذلك الحين.

٤. نحن المسؤولون عن معالم عالمنا

إن رموز اليوم هي تمهيد لواقع الغد، فلا تتغاض عن الصليب المعقوف ورموز الكراهية الأخرى، ولا تشح بنظرك بعيداً، ولا تعتبرها أمراً ينبغي التعود عليه، بل قم بإزالتها بنفسك وكن قدوة يحتذيها غيرك في إزالتها.

إن أسلوب حياتك كمواطن قضية سياسية، ليس لأن العالم يهتم بما تشعر به، بل لأن العالم يتفاعل مع تصرفاتك، والاختيارات اليومية البسيطة التي نجريها هي في حد ذاتها نوع من التصويت ومؤشر فيما إذا كنا سنخوض في المستقبل انتخابات حرة ونزيهة، وميزان السياسة الأساسي يتأثر كثيراً بكلماتنا وإيماءاتنا أو غيابها، وسيتبين لنا هذا من خلال بعض الأمثلة المتطرفة، والأقل تطرفًا، من القرن العشرين.

عندما حكم جوزيف ستالين الاتحاد السوفييتي صورت ملصقات الدعاية الشيوعية المزارعين أصحاب المزارع المزدهرة كخنازير، وكان ذلك تجريداً لهم من الإنسانية وإيحاءاً مخيفاً في بيئة ريفية بأن مآلهم إلى الذبح كما هو حال الخنازير، وحدث ذلك في أوائل الثلاثينيات حين حاولت الدولة السوفييتية السيطرة على الريف والاستحواذ على رؤوس الأموال لتنفيذ خطة تصنيع شديدة الاستعجال، وكان أول من فقد أراضيه ومواشيه هم الفلاحون الذين زادت ملكياتهم من الأراضي أو الماشية على ما عند أمثالهم، لأنه عندما تصور الدولة جارك على أنه خنزير فإنها تجعله شخصاً يمكن لك أن تستولي على أرضه، ولم ينج من ذلك أحد في نهاية المطاف، فحتى الذين سايروا الحملة الحكومية أضحوا ضحايا لها فيما بعد، وبعد أن أججت الدولة السوفييتية عِداء الفلاحين الأفقر ضد الأغنياء منهم، استولت على أراضي كل مزارع وضمتها

للمزارع الجماعية الجديدة، ولما انتهت الدولة من تنفيذ مشروع المزارع الجماعية تمخض عن كارثة جلبت المجاعة إلى كثير من الفلاحين السوفيتيين، وبين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٣ مات ملايين الناس ميتة فظيعة ومذلة في أوكرانيا وكازاخستان وروسيا السوفيتية، ولم تنته المأساة إلا والمواطنون السوفييت قد وصل بهم الجوع إلى أكل لحم الأموات.

وفي عام ١٩٣٣، وعندما بلغت المجاعة ذروتها في الاتحاد السوفييتي، وصل الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا، وحاول النازيون، في غمرة النصر، تنظيم مقاطعة للمحلات اليهودية لم تلق كثير نجاح في البداية، ولكنهم لما بدأوا بطلاء علامات على النوافذ أو الجدران تميز البقالات اليهودية عن الآرية، فإن ذلك نجح في تغيير طريقة تفكير الألمان فيما يتعلق بمشترياتهم من اللوازم المنزلية، وكاد أن يفلس كل متجر يحمل علامة يهودي، وأصبح فريسة يدور

حولها المتربصون الانتهازيون، وهكذا جعلت علامة "يهودي" الأخلاق تنحسر ويحل محلها الحسد.

ولم تتوقف الأمور هناك، فإذا كانت البقالات "يهودية"، ماذا عن الشركات والممتلكات الأخرى؟ وهكذا ساهم الجشع في أن تطفو إلى السطح الرغبة في أن يختفي اليهود من المجتمع، والتي كانت مكتومة في البداية، وهكذا فإن الألمان الذين شاركوا في تمييز المتاجر "اليهودية" شاركوا في المآل في استئصال اليهود من المجتمع، كما شارك في ذلك الناس الذين بقوا متفرجين دون أن يعترضوا، إن قبول رموز الكراهية على أنها جزء عادي من المجتمع المتحضر كان في الواقع تمهيداً لمستقبل قائم على الإجرام.

وقد تُقدَّمُ لك في يوم من الأيام رموزٌ ويطلب منك باسم الولاء للوطن أن تضعها على بيتك أو متجرك، فتأكد

أن هذه الرموز تجمعك بإخوتك في الوطن بدلا من أن تفرقك عنهم، ولا تتهاون حتى في أمر الدبابيس التي يضعها الناس في عروة السترة، ففي ألمانيا النازية في سنة ١٩٣٣ كان الناس يرتدون دبابيس تقول "نعم" وذلك في أثناء الانتخابات والاستفتاء الذي جاء بدولة الحزب الواحد، وفي عام ١٩٣٨ كانت البداية عندما بدأ النمساويون الذين لم يكونوا من النازيين سابقا في ارتداء دبابيس الصليب المعقوف، فلنكن على حذر لأن ما قد يبدو بادرة افتخار يمكن أن يكون مصدرا للفرقة وشق الصفوف، وفي ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، اختار بعض الأوروبيين ارتداء صليب معقوف، فمهدوا الطريق أمام التمييز ضد اليهود الذين اضطرهم النازيون إلى ارتداء النجوم الصفراء.

وتقدم لنا الحقبة المتأخرة من تاريخ الشيوعية درسًا مهمًا عن الرموز، فحين لم يعد أحد يؤمن بالثورة بقيت

الرموز والشعارات في الأماكن العامة تعبيراً عن استمرارية النظام الاستبدادي، وبالرغم من أن المواطنين كانوا في ذروة الإحباط، وكل ما كانوا يريدونه هو أن يتركهم النظام وشأنهم.

لقد شعر عديد من مواطني تشيكوسلوفاكيا بالبهجة عندما فاز الشيوعيون التشيكوسلوفاك بالانتخابات عام ١٩٤٦، ولكنهم استولوا على السلطة بعد انقلاب عام ١٩٤٨، وبعد ثلاثة عقود، وفي عام ١٩٧٨، كتب المفكر المنشق فاتسلاف هافيل كتابه: قوة الضعفاء، ليشرح كيف تمكن نظام قمعي من الاستمرار رغم أنه لم تبق إلا قلة من الناس تؤمن بأفكاره وأهدافه، وضرب مثالاً على ذلك ببائع خضار لا يزال يضع في نافذة دكانه شعار: يا عمال العالم اتحدوا!

ولم يضع الرجل هذا الشعار، الذي نادى به ماركس في البيان الشيوعي، لأنه يؤمن به أو يؤيده، بل كل ما كان يريده أن يستمر في العيش دون مشاكل مع السلطات، وعندما يتصرف كل المواطنين بنفس المنطق، فستغطي شعارات الولاء الزائف الساحات والأماكن العامة، ولن يفكر أحد في المقاومة، وعلّق هافيل على هذه الظاهرة: لقد رأينا أن المغزى الحقيقي للشعار الذي وضعه بائع الخضار لا علاقة له بمضمون الشعار، إن مغزاه الحقيقي واضح تمامًا دون أي لَبس ويعرفه جميع المواطنين: إن بائع الخضار يعلن عن ولائه بالطريقة الوحيدة التي يرغب النظام في سماعها؛ من خلال مراسم مفروضة وبقبول المظاهر على أنها دلائل الحقيقة، إن بائع الخضار عندما قبل قواعد اللعبة كما حددها النظام، جعل استمرارها ممكنًا فضلاً عن وجودها في المقام الأول. وتساءل هافيل: ما الذي كان سيحدث لو أن كل الناس رفضوا أن يلعبوا اللعبة؟

٥. لنلتزم بأخلاق المهنة

عندما يقدم القادة السياسيون مثالاً سلبيًا للمواطنين فإن التزام بقية المجتمع بأخلاق المهنة وضمانات العدل والإنصاف يصبح أكثر أهمية، فمن الصعب تقويض دولة حكم القانون دون محامين، ومن العسير إجراء محاكمات استعراضية بدون قضاة، ولا يستغني المستبدون عن موظفي الحكومة المطيعين، وفي ألمانيا النازية تعاون مديرو معسكرات الاعتقال مع رجال الأعمال الباحثين عن العمالة الرخيصة.

كان هانز فرانك محامي هتلر الشخصي قبل الحرب العالمية الثانية، ولكنه بعد غزو ألمانيا لبولندا في عام ١٩٣٩ أصبح الحاكم العام لبولندا المحتلة التي أضحت مستعمرة ألمانية قُتِلَ فيها الملايين من اليهود والمواطنين البولنديين الآخرين، وتباهى هانز فرانك في إحدى المرات أنه لو

أعلنت كافة عمليات الإعدام في ملصقات فلن تكون هناك أشجار كافية لإنتاج ورقها، وادعى فرانك أن القانون وُضع لخدمة العرق الآري، ولذا فإن كل ما يصب في مصلحته يضحى جزءاً من القانون، وبمثل هذه الحجج أمكن للقانونيين الألمان أن يقنعوا أنفسهم بأن القوانين والقواعد موجودة لا لإيقاف مخططات التسلط والتخريب، بل لخدمتها.

وهكذا رأينا هتلر يختار المحامي آرثر سيّس-إنكوارت للإشراف على ضم النمسا، وثم يعهد إليه فيما بعد بإدارة الاحتلال الألماني في هولندا، ومن الملاحظ أن نسبة المحامين كانت عالية في قادة فرق الموت النازية التي نفذت القتل الجماعي لليهود والغجر والنخب البولندية والشيوعيين والمعاقين وغيرهم، وشارك الأطباء الألمان، وغير الألمان، في تجارب طبية مروعة في معسكرات الاعتقال، وأسس النازيون نظام سخرة استغل فيه مدراء

الشركات الألمانية سجناء معسكرات الاعتقال وأسرى الحرب واليهود في الأحياء اليهودية ليشغلوهم في مصانعهم وأعمالهم، ورأى ذلك موظفو الدولة من الوزير إلى الحاجب ولم يفتهم شيء مما جرى.

لو أن المحامين حافظوا على قاعدة ألا إعدام دون محاكمة، ولو رفض الأطباء إجراء الجراحة دون موافقة المريض، ولو أن رجال الأعمال قد أيدوا حظر السخرة، ولو رفض البيروقراطيون تسيير معاملات تضمن قتل المعارضين، لواجه النظام النازي صعوبة لا توصف في تنفيذ الفظائع التي أضحت سمته الأساسية.

إن الاتحادات المهنية والنقابات تستطيع التحدث عن الأخلاقيات على مستوى يستحيل إجراؤه بين فرد وحيد وبين حكومة متجبرة، ولو اعتبر أعضاء هذه المهن أنفسهم مجموعات ذات مصالح مشتركة تنظمها قواعد وإجراءات

يلزمهم اتباعها في جميع الأوقات، فإن ذلك سيمنحهم الثقة بموقفهم، بل وسيعطيهم مقداراً من الشرعية والاحترام، ويغدو اتباع أخلاقيات المهنة أشد أهمية عندما يقال لنا إن الظرف ظرفٌ استثنائي، ففي هذه الحالة ينبغي أن تنتفي حجة: كنت فقط أنفذ الأوامر، لأن أعضاء المهن عندما يخلطون بين ديمومة أخلاقيات المهنة وبين مشاعر لحظية، فسيجدون أنفسهم يقولون ويفعلون أشياء كانت من قبل أبعد ما يكون عن تصورهم.

٦. حذار من التنظيمات المسلحة

عندما يبدأ الرجال المسلحون والذين طالما زعموا أنهم ضد النظام في لبس زي موحد وتنظيم مسيرات ليلية تطوف الشوارع على ضوء المشاعل وتحمل صور الزعيم، فاعلم أن النهاية قد دنت! وعندما يقوم المسلحون الموالون للزعيم بتسيير مواكبهم مع الشرطة والجيش النظاميين، فاعلم أن النهاية قد بدأت.

وتسعى معظم الحكومات، في معظم الأحيان، إلى احتكار القوة المسلحة، ولا يمكن أن تتم الممارسات السياسية التي نعتبرها من المسلمات في المجتمعات الديمقراطية إلا إذا كان هذا الاحتكار مقصوراً على الحكومة ومنضبطًا بالضوابط القانونية، أما إذا استخدمت القوة جهة غير الدولة فمن المستحيل إجراء انتخابات

ديمقراطية، أو محاكمات عادلة أو تشريع القوانين أو تنفيذها، أو ممارسة الحكومة لأعمالها الاعتيادية.

ولهذا السبب فقط، يقوم الأشخاص والأحزاب التي ترغب في تقويض الديمقراطية وحكم القانون بإنشاء وتمويل منظمات سياسية تمارس العنف لتفرض قوتها، ويمكن لمثل هذه التجمعات أن تتخذ شكل جناح عسكري لحزب سياسي، أو قوة الحرس الشخصي لرئيس الحزب، أو ما يبدو مبادرة عفوية يقوم بها المواطنون، وهي في الواقع حركة نظمها الحزب أو زعامته.

وتقوم الجماعات المسلحة أولاً بتخريب النظام السياسي، ومن ثَم تغييره، ومثال ذلك ما حدث في الفترة ما بين الحرب العالمية الأولى وبين الحرب العالمية الثانية، حين قامت جماعات العنف اليمينية مثل الحرس الحديدي في رومانيا أو صليب السهم في هنغاريا بتخويف الخصوم

وإسكاتهم، وفي حالة الحركة النازية بدأ جنود قوات العاصفة النازية كسرايا الأمن المسؤولة عن إخراج معارضي هتلر أثناء خطاباته في مسيراته، ثم تحولوا إلى قوات حزبية مسلحة عرفت باسم قوات الصدمة SA أو قوات الأمن الخاصة SS، وأوجدت هذه القوات جواً من الخوف ساعد الحزب النازي في الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٣٢ و١٩٣٣، وفي عام ١٩٣٨ انتهزت قوات الصدمة في النمسا غياب السلطات الرسمية وانقضت على اليهود لتنهبهم وتضربهم وتذلهم، وبذلك غيرت قواعد التعامل السياسي ومهدت الطريق لاستيلاء النازيين على البلاد، وكانت قوات الأمن الخاصة هي التي أدارت معسكرات الاعتقال الألمانية التي كانت خارج القانون ولا تتبع إجراءات الاحتجاز المعتادة، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، نقلت قوات الأمن الخاصة هذا الأسلوب الذي ابتكرته من معسكرات الاعتقال لتطبقه على دول أوروبية

بأكملها كانت تحت الاحتلال الألماني، وهكذا نرى أن قوات الأمن الخاصة بدأت كمنظمة خارج القانون، ثم أصبحت فوق القانون، وانتهى بها المطاف كمنظمة ألغت القانون.

وفي أمريكا جرت منذ سنوات خصخصة واسعة للاستخدام الرسمي للعنف، بدأت منذ استخدمت الحكومة الأمريكية المرتزقة في حروبها، وصارت حكومات الولايات تتعاقد مع الشركات لإدارة سجونها، والأمر الذي استجد اليوم هو وجود رئيس يرغب في الحفاظ، أثناء وجوده في السلطة، على قوة أمنية شخصية كانت قد استخدمت القوة خلال حملته ضد المعارضين، فقد أمر الرئيس ترمب عندما كان مرشحًا بتكوين مجموعات أمنية خاصة تنظف التجمهرات من المعارضين، وكذلك شجع أفرادَ الجمهور أن يطردوا بأنفسهم الأشخاص الذين عبروا عن آراء تتباين مع آرائه، وهكذا رأينا كيف كان المحتج يواجه بصيحات

الاستهجان، ثم بهتافات محمومة "أمريكا ... أمريكا" ثم يجبر على مغادرة المسيرة، وفي أحد الحملات الانتخابية، وجه المرشح ترمب الجمهور: "لا يزال هناك بقايا منهم! دعونا نُخرِجُ من بقي! لنخرج من بقي!" وأخذ المتجمعون بتوجيهاته وحاولوا اجتثاث الأشخاص ممن يظن كونهم معارضين، وفعلوا ذلك وهم يهتفون "أمريكا ... أمريكا"، وتدخل ترمب في أثنائها قائلاً: "أليس هذا أكثر متعة من تجمهر ممل عادي؟ بالنسبة لي، إنه ممتع". كان المقصود من هذا النوع من العنف الغوغائي تحويل المناخ السياسي، وقد فعل.

ولا يغير العنف المناخ السياسي فحسب، بل يغير النظام أيضـًا، فالنزعة العدائية التي نشهدها في التظاهرات والتجمهرات وعقلية الإقصاء تصبح ركنًا في تدريب الأمنيين المسلحين، والذين يبدؤون في تحدي الشرطة

والجيش، ثم اختراق الشرطة والجيش، وأخيرا الاستيلاء على الشرطة والجيش وتسييرهما.

٧. لا تعطل عقلك إذا حملت السلاح

إذا كنت ممن يحملون السلاح في خدمة الوطن، فنسأل الله أن يحفظك ويبارك فيك، ولكن لا تنس أن شرور الماضي حدثت بمشاركة من رجال الشرطة والجنود الذين وجدوا أنفسهم، في يوم من الأيام، يفعلون أشياء غير قانونية؛ فكن على استعداد لقول: لا.

توجد في الأنظمة الاستبدادية قوة شرطة خاصة لمكافحة الشغب، تتمثل مهمتها في تفريق المواطنين إذا هم بدأوا في الاحتجاج، كما تتضمن قوة شرطة سرية حكومية تشمل مهامها تصفية المنشقين أو غيرهم ممن يصنفهم المستبدون على أنهم أعداء، واستعراض التاريخ يدلل على أن الشرطة السرية تورطت تورطًا عميقا في الأعمال الوحشية الهائلة التي جرت في القرن العشرين، مثل حملة الرعب العظيم في الاتحاد السوفييتي التي جرت في سنتي

١٩٣٧ و١٩٣٨، ومحرقة اليهود الأوروبيين التي ارتكبتها ألمانيا النازية في سنوات ١٩٤١-١٩٤٥، ومع ذلك، فإننا نرتكب خطأً فادحًا إذا تصورنا أن المخابرات السوفييتية NKVD أو قوات الأمن الخاصة النازية تصرفت بمفردها دون دعم أو مساعدة من قوات الشرطة النظامية، وأحيانا الجيش النظامي، فلولا هؤلاء ومساعدتهم لم يكن بوسع هذه القوات القتل على هذا النطاق الواسع.

وتذكر سجلات المخابرات السوفييتية الخاصة بحملة الرعب العظيم في الاتحاد السوفيتي أن ضباطها أعدموا ٦٨٢,٦٩٢ شخصًا ممن افترضوا عداءهم للنظام، وكان أغلب هؤلاء من الفلاحين أو من الأقليات غير الروسية، وربما لم يشهد التاريخ على الإطلاق جهازاً استخدم العنف على نحو مركزي وممنهج مثل المخابرات الروسية في هاتين السنتين، وفي الواقع لم يقم إلا عدد قليل من الرجال بالضغط على الزناد وقتل المعارضين والمشتبه

بهم، وهذا يعني أن سجل بعض أفراد ضباط المخابرات الروسية يحتوي على آلاف من جرائم القتل السياسي، ومع ذلك، لم يكونوا ليستطيعوا تنفيذ هذه الحملة دون مساعدة من قوات الشرطة المحلية والقانونيين والموظفين العاديين في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، ولقد حدث الرعب العظيم أثناء حالة طوارئ أُمر فيها جميع رجال الشرطة أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف المخابرات ومهامها الخاصة، ولئن لم يكن رجال الشرطة هم الجناة الرئيسيين إلا أنهم وفروا الأعداد التي لا غنى عنها لتنفيذ هذه الجرائم.

وعندما تُذكر محرقة اليهود النازية فإننا نتخيل معسكر اعتقال أوشفيتز وموتًا ميكانيكيًا لا يقزز مشاعرنا، وهذا الوصف للإبادة الجماعية لليهود يروق للألمان لأنه يمكِّنُهم من الزعم أن قليلاً منهم قد عرف بالضبط ما حدث وراء بوابات معسكر أوشفيتز، ولكن الإبادة الجماعية في الواقع لم تبدأ في مرافق الإعدام، بل في حُفرِ المقابر

الجماعية في أوروبا الشرقية. وبالفعل، تمت في نورمبرج، ثم في محاكم ألمانية في وقت لاحق، محاكمة بعض قادة قوات التحرك Einsatzgruppen، وهي فرق عمل ألمانية ارتكبت بعض جرائم القتل، ولكن حتى هذه المحاكمات كانت نوعًا من التقليل من حجم الجريمة، فلم يكن القتلة قادة القوات وحدهم، ولكن من حيث المبدأ كان القتلة كل آلاف الرجال الذين خدموا تحت قيادتهم.

وحتى هذه القوات كانت هذا مجرد بداية، فقد شاركت الشرطة الألمانية النظامية في كل الإعدامات الكبيرة في عملية الإبادة الجماعية لليهود، والتي قُتل فيها خارج كييف في أوكرانيا أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف يهودي، وقُتل فيها خارج ريغا في لاتفيا أكثر من ثمانية وعشرين ألف يهودي، وبشكل عام، قام رجال الشرطة النظاميون بقتل اليهود أكثر من رجال قوات التحرك، ولم يكن كثير من الشرطة جاهزين أو مدربين مسبقًا لهذه المهمة، لقد وجدوا

أنفسهم في أرض مجهولة، وصدرت إليهم الأوامر، ولم يريدوا أن يظهروا بمظهر الضعيف، ولكن لا ننس أنه لم تتم معاقبة رجال الشرطة في الحالات النادرة التي رفض فيها هؤلاء تنفيذ الأوامر بقتل اليهود.

لقد قتل البعض بدافع من قناعتهم الإجرامية، ولكن كثيرين غيرهم ممن شاركوا في القتل كانوا فقط يخافون من أن يعيَّروا لانفرادهم عن المجموع، ولا شك أنه كانت هناك عوامل أخرى إلى جانب ذلك، ولكن كان من المستحيل ارتكاب تلك الفظائع المهولة دون وجود من أرادوا مسايرة الأمور.

٨. قف دون رأيك في الحياة مجاهداً

لا بد من أن تقف مدافعًا عن رأيك مهما كان الثمن، إن من السهل مسايرة القطيع، وقد تشعر أنك غريب ووحيد عندما تفعل أو تقول شيئًا مختلفًا، ولكن بدون هذا الحرج لا توجد حرية. تذكر السيدة السوداء روزا باركس التي فرضت على البيض احترام السود، ففي اللحظة التي تضرب فيها المثل للآخرين سينقلب السحر على الطاغية الساحر وسترى وراءك من يحذو حذوك.

لقد دبج الأوروبيون والأمريكيون وغيرهم بعد الحرب العالمية الثانية أساطير حول المقاومة الصلبة التي تصدت لهتلر والنازية، ولكن الواقع أن المواقف السائدة في الثلاثينيات كانت مواقف تقبل وإعجاب، وبحلول عام ١٩٤٠ توصل معظم الأوروبيين إلى نوع من السلام مع ألمانيا النازية التي بدت قوية لا تقاوم، وعارض أمريكيون

ذوو نفوذ مثل تشارلز ليندبيرغ الحرب مع النازيين تحت شعار "أمريكا أولا"، أما من بقي مصراً على استنكار النازية ولم يتغير رغم هذه التيارات فقد اعتبروا آنذاك متفردين أو غريبي الأطوار بل وحتى مخبولين، وهؤلاء هم الذين نذكرهم اليوم بكل تقدير.

وفي عديد من الدول الأوروبية رحلت الديمقراطية قبل الحرب العالمية الثانية بوقت طويل لصالح شكل من أشكال الاستبداد اليميني، فأصبحت إيطاليا أول دولة فاشية في عام ١٩٢٢، وصارت حليفًا عسكريًا لألمانيا، أما هنغاريا ورومانيا وبلغاريا فانجذبت نحو ألمانيا بوعود المصلحة التجارية والمكاسب الإقليمية، وعندما ضمت ألمانيا النمسا في مارس عام ١٩٣٨ لم تظهر القوى العظمى أية مقاومة لذلك، وفي سبتمبر ١٩٣٨ تعاونت القوى العظمى؛ فرنسا وإيطاليا، ومعهما بريطانيا العظمى بقيادة نيفيل تشامبرلين، مع ألمانيا النازية في تقسيم

تشيكوسلوفاكيا، وفي صيف عام ١٩٣٩ تحالف الاتحاد السوفييتي مع ألمانيا النازية وانضم الجيش الأحمر إلى الجيش الألماني في غزو بولندا، ولكن الحكومة البولندية اختارت المقاومة على الاستسلام وطلبت تطبيق معاهداتها السابقة التي دخلت بموجبها بريطانيا وفرنسا في الحرب، وتابعت ألمانيا حملتها، والاتحاد السوفييتي يزودها بالغذاء والوقود، فاحتلت النرويج وهولندا وبلجيكا ثم فرنسا في ربيع عام ١٩٤٠، وفي مايو ويونيو سنة ١٩٤٠ انسحبت بقايا القوات البريطانية في عملية إجلاء دنكيرك، وأضحى البر الأوروبي تحت السيطرة التامة لألمانيا.

وعندما تسلم ونستون تشرشل رئاسة وزراء بريطانيا في مايو ١٩٤٠، كانت بريطانيا العظمى في حالة يرثى لها، فقد كانت وحدها تواجه الألمان في حرب لم تربح فيها أي معركة ذات شأن، ولم يكن لديها حلفاء يعتد بهم، لقد دخل البريطانيون الحرب لدعم بولندا، وهي قضية بدت خاسرة،

وهيمنت ألمانيا النازية وحليفها السوفييتي على أوروبا، فقد غزا السوفييت فنلندا في نوفمبر عام ١٩٣٩، مبتدئين بقصف هلسنكي، ومباشرة بعد تولي تشرشل منصبه، احتل الاتحاد السوفييتي دول البلطيق الثلاث؛ إستونيا ولاتفيا وليتوانيا وأعلن ضمها له، ومع ذلك كله لم تدخل الولايات المتحدة الحرب.

ولم يكن لدى أدولف هتلر أي عداء خاص تجاه بريطانيا أو إمبراطوريتها، بل كان في تقديره أن يتقاسم معها مناطق النفوذ في العالم، وتوقع هتلر بعد سقوط فرنسا أن يرضخ تشرشل، ولكنه لم يفعل وقال للفرنسيين: افعلوا ما تشاؤون، أما نحن فسنقاتل إلى الأبد.

وفي يونيو ١٩٤٠، أخبر تشرشل البرلمان البريطاني أن معركة بريطانيا على وشك أن تبدأ، وباشر سلاح الجو الألماني قصف المدن الإنجليزية، وتوقع هتلر أن هذا

سيجبر تشرشل على طلب الهدنة، ولكنه كان مخطئا، فقد بقي تشرشل صلبـًا، ووصف فيما بعد في مذكراته هذه الفترة: بالوقت الذي تساوى فيه العيش و الموت، وقال: كان لي شرف التعبير عن المزاج البريطاني الذي بقي حراً غير خانع. وفي الواقع فإن تشرشل هو الذي ساعد البريطانيين أن ينظروا لأنفسهم على أنهم شعب فخور يقاوم الشر دون خوف، وكان غير تشرشل من السياسيين سيتلمس دعم الرأي العام البريطاني لإنهاء الحرب، إلا أن تشرشل بدلا من ذلك اختار المقاومة وبث روحها في شعبه وفاز في النهاية، وقام سلاح الجوي الملكي البريطاني، والذي كان يتضمن سربين بولنديين وعدداً آخر من الطيارين الأجانب، بالتصدي لسلاح الجو الألماني وحرمانه من التحكم بالأجواء، وهو ما جعل هتلر يعدل عن غزو بحري لبريطانيا في غياب السيطرة الجوية، لقد فعل تشرشل

ما لم يفعله الآخرون، وبدلا من التنازل مقدما أجبر هتلر على تغيير خططه.

كانت الاستراتيجية الألمانية الرئيسية هي القضاء على أي مقاومة في غرب أوروبا، ثم غزو، وخيانة حليف الأمس، الاتحاد السوفييتي واستعمار أراضيه الغربية، وفي يونيو ١٩٤١ هاجمت ألمانيا حليفتها السوفيتية، ولأن بريطانيا بقيت تقاتل اضطرت برلين إلى خوض حرب على جبهتين، وفجأة أصبحت موسكو ولندن حليفتين غير متوقعتين، وفي ديسمبر ١٩٤١، قصفت اليابان القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربور في هاواي، ودخلت الولايات المتحدة الحرب، وهكذا انتظمت موسكو وواشنطن ولندن في ائتلاف عتيد لا تمكن هزيمته، وبمساعدة العديد من الحلفاء الآخرين ربحت هذه القوى العظمى الثلاث الحرب العالمية الثانية، ولكن لو لم يواصل

تشرشل ببريطانيا الحرب في عام ١٩٤٠ لكانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت هناك.

وقال تشرشل إن التاريخ سيكون محابيًا له لأنه ينوي كتابته بنفسه، ولكنه في تأريخه ومذكراته المستفيضة اعتبر ما اتخذه من قرارات أمراً لم يكن يشوبه أي لَبس، وأرجع الفضل فيه إلى الشعب البريطاني وحلفاء بريطانيا، وإذا كنا اليوم نرى أن تصرف تشرشل كان التصرف الطبيعي والصحيح، إلا أنه في ذلك الوقت كان قراراً انفرد فيه دون غيره.

ولا ننسى أن بريطانيا العظمى دخلت الحرب فقط لأن القيادة البولندية اختارت القتال في سبتمبر ١٩٣٩، ولكن الألمان أخضعوا المقاومة المسلحة البولندية النظامية بحلول أكتوبر ١٩٤٠، وأصبحت معالم الاحتلال الألماني جلية في العاصمة البولندية وارسو.

وهنا نتحدث عن شخصية بولندية تميزت كذلك بوقوفها في وجه الاحتلال وهي الشابة تيريزا بريكروا التي كانت قد أنهت دراستها الثانوية في ذلك العام، واستولى الألمان على ممتلكات عائلتها التي اضطرت للانتقال إلى وارسو لتعيش في بيت استأجرته، وهناك قبض الألمان على والدها وقتل أحد أعمامها في ساحة المعركة، وأضحى اثنان من إخوتها في معسكرات أسرى الحرب الألمانية، وتعرضت وارسو نفسها لأضرار بالغة بسبب قصف جوي ألماني أودى بحياة حوالي ٢٥ ألف شخص.

وقد تميزت الشابة تيريزا بين أصدقائها وعائلتها في رد فعلها على هذا الرعب، وحين كان من الطبيعي أن تفكر في تخليص نفسها فقط من هذه المصائب، إلا أنها فكرت في الآخرين، وفي أواخر عام ١٩٤٠، بدأ الألمان في إنشاء غيتو في الجزء البولندي تحت سيطرتهم، وأمروا في شهر أكتوبر اليهود في وارسو وما حولها أن ينتقلوا إلى منطقة معينة من

المدينة، وكان أحد إخوة تيريزا صديقًا لفتاة يهودية وعائلتها قبل الحرب، ورأت تيريزا كيف لم يتحرك الناس رغم رؤيتهم أصدقاءهم اليهود يختفون من حياتهم.

وقامت تيريزا دون إخبار عائلتها، بالمغامرة بحياتها والدخول إلى حي اليهود في وارسو عشرات المرات في أواخر عام ١٩٤٠، وجلبت الطعام والدواء إلى اليهود الذين عرفتهم واليهود الذين لم تكن تعرفهم، ثم أقنعت صديقة شقيقها بالهروب من الحي اليهودي، وفي سنة ١٩٤٢ ساعدت تيريزا والدا الفتاة وشقيقها في الفرار، وذلك قبل أن يقوم الألمان في صيف ذلك العام بما أسموه "الحملة الكبيرة"، حين رحّلوا حوالي ٢٦٥,٠٤٠ يهوديًا من وارسو إلى مصنع الموت في تريبلينكا، وقتلوا ١٠,٣٨٠ يهوديا آخر في الحي اليهودي نفسه، لقد أنقذت شجاعة تيريزا عائلة من موت محقق.

وفيما بعد درست تيريزا بريكروا التاريخ وأصبحت في عداد المؤرخين، واختصت بالكتابة عن المحرقة والحي اليهودي في وارسو وعن الذين ساهموا في مساعدة اليهود، وفضلت ألا تكتب عن نفسها، وعندما طُلب منها أن تتحدث عن حياتها في وقت لاحق وصفت أعمالها بأنها كانت التصرف الطبيعي. ونحن اليوم نرى ما فعلته أعمالاً متميزة. لقد وقفت بجانب ما رأته صواباً، والحياة مواقف.

٩. لا تكن ببغاءً

تجنب تكرار العبارات التي يستخدمها الجميع، وتحدث بأسلوبك الخاص حتى لو كنت تنقل ما تظن أن الجميع يقوله، وابذل جهداً لتُبعد نفسك عن الإنترنت وخصص وقتـًا لقراءة الكتب.

سخّر فيكتور كلمبيرر، وهو عالم في الأدب من أصل يهودي، تخصصه في اللغويات ضد الدعاية النازية، ولاحظ كيف أن الاستخدامات اللغوية لهتلر تمحورت حول رفض المعارضة القائمة على شرعية القانون: كانت كلمة "الناس" عنده تعني دومـًا بعض الناس دون غيرهم – والرئيس ترمب يستخدم هذه الكلمة بهذه الطريقة – والمواجهات هي عنده دوما صراعات – ويسميها الرئيس مبارزات – وأي محاولة من الناس الأحرار لفهم العالم

بطريقة مختلفة إنما هي تشهير بالقائد – أو كما يقول الرئيس: إفك مبين.

وفي عصرنا يغذي السياسيون التلفاز بتعابيرهم الملغومة ليضطر إلى تكرارها حتى أولئك الذين قد لا يوافقون معهم، ويقال إن التلفزيون يتحدى أطر اللغة السياسية عندما يقدم صورة ما يحدث للمشاهد، ولكن الانتقال من صورة إلى أخرى يمكن أن يعيق التركيز واستيعاب ما يحدث، فعلى شاشة التلفاز كل شيء يحدث بسرعة حتى يخيل إلينا أنه لا شيء يحدث في الواقع، وكل قصة على الأخبار المتلفزة هي "الحدث" حتى يحل محلها الخبر التالي، وهكذا نتلقى الموجة تلو الموجة دون أن نرى المحيط الواسع.

وتتطلب الجهود المبذولة لتحديد أبعاد الأحداث وأهميتها كلمات ومفاهيم لا نصل إليها عندما نغرق في

المؤثرات البصرية، وفي بعض الأحيان لا تزيد مشاهدة الأخبار المتلفزة عن النظر إلى شخص ينظر إلى صورة ما، وقد أصبحنا نرى هذه الغيبوبة الجماعية أمراً طبيعيا، وهو أمر لم يحدث فجأة بل غرقنا في هذا المستنقع شيئًا فشيئا.

ومنذ أكثر من نصف قرن، حذرت الروايات الكلاسيكية التي تحدثت عن الحكم المستبد من هيمنة الشاشات وانحسار الكتب وتضييق المفردات، وما يصحب ذلك من صعوبات في التفكير، وقد رأينا راي برادبري في قصته: فهرنهايت ٤٥١، التي نشرت عام ١٩٥٣، يصف كيف كان رجال الإطفاء يجمعون الكتب ويحرقونها فيما كان معظم المواطنين غارقين في مشاهدة التلفزيون التفاعلي، وفي قصة: ١٩٨٤ التي ألفها جورج أورويل ونشرت عام ١٩٤٩، نرى كيف حظر المستبدون الكتب، وجعلوا التلفاز ذا اتجاهين يُرى المشاهد من خلاله ويمكِّنُ الحكومة من مراقبة المواطنين في جميع الأوقات، وتسرد

قصة ١٩٨٤ كيف كانت لغة الإعلام المرئي محدودة للغاية بهدف حرمان الجمهور من المفاهيم اللازمة للتفكير في الحاضر وتذكر الماضي واستشراف المستقبل، وكان أحد مخططات النظام هو تقليص اللغة أكثر فأكثر من خلال حذف مزيد من الكلمات مع كل طبعة جديدة من القاموس الرسمي.

قد يكون التحديق في الشاشات أمرا لا يمكن تجنبه، لكن العالم ثنائي الأبعاد يصبح شديد التسطيح ولا معنى له إلا إذا استطعنا أن نستعين في ذاكرتنا بحصيلة قمنا بتنميتها من مصدر آخر، وعندما نكرر نفس الكلمات والعبارات التي تظهر في وسائل الإعلام اليومية، فإننا نقبل غياب وجود إطار أكبر يتطلب المزيد من المفاهيم، ولن يوجد مزيد من المفاهيم إلا بالقراءة، ولذا أخرِجْ الشاشات من غرفتك وأحِطْ نفسك بالكتب، ولئن لم يستطع أبطال روايات

أورويل وبرادبري فعل ذلك، إلا أننا ما زلنا قادرين على ذلك.

ولو سألتني: ماذا نقرأ؟ لقلت: أي رواية جيدة تنشط قدرتنا على تحليل المواقف الغامضة وتساعدنا في الحكم على نوايا الآخرين، ولعل ما يناسب وقتنا الراهن رواية فيودور دوستوفيسكي؛ الإخوة كارامازوف، ورواية ميلان كوندرا؛ خفة الوجود والحمل الأثقل، ورواية سنكلير لويس؛ هذا لا يمكن أن يحدث هنا، وإن لم تكن رواية مرموقة من الناحية الفنية، وفيليب روث في كتابه؛ مؤامرة ضد أمريكا أفضل، وأخيراً هناك القصة التي يعرفها الملايين من الناشئة الأميركيين والتي تقدم رواية عن الاستبداد والمقاومة، وهي رواية جوان رولينج؛ هاري بوتر والأقداس المهلكة، وإذا كنت أنت أو أصدقاؤك أو أطفالك لم تقرأوها من هذا المنظور في المرة الأولى، فإن الأمر يستحق قراءتها مرة ثانية.

ولو أردنا مطالعة بعض النصوص السياسية والتاريخية التي تتعلق بالأفكار السابقة فعلينا أن نقرأ كتاب السياسة واللغة الإنجليزية لجورج أورويل، والمنشور سنة ١٩٤٦، وكتاب لغة الرايخ الثالث لفيكتور كليمبيرر، والمنشور سنة ١٩٤٧، وكتاب أصل الاستبداد الكلي بقلم حنة أرندت، والمنشور سنة ١٩٥١، وكتاب المتمرد لألبير كامو، والمنشور سنة ١٩٥١، وكتاب العقل الأسير بقلم زيسلاو ميلوزش، والمنشور سنة ١٩٥٣، وكتاب قوة الضعفاء بقلم فاتسلاف هافيل، والمنشور سنة ١٩٧٨، وكتاب كيف تكون محافظا اشتراكيا ليبراليا بقلم ليزيك كولاكوفسكي، والمنشور سنة ١٩٧٨، وكتاب استغلال الشدائد بقلم تيموثي جارتون آش، وكتاب عبء المسؤولية بقلم توني جوديت، والمنشور سنة ١٩٩٨، وكتاب الرجال العاديون بقلم كريستوفر براوننج، والمنشور سنة ١٩٩٢،

وكتاب لا يوجد شيء حقيقي وكل شيء ممكن، بقلم بيتر بوميرانتسيف، والمنشور سنة ٢٠١٤.

وقد يرجع المسيحيون إلى الكتاب الأول وكتاب كل الأوقات، وقد جاء في الكتاب المقدس أن المسيح قال: أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة أيسر من أن يدخل الغنيُّ ملكوت الله. ويرشدنا إلى أن نكون متواضعين، لأن المسيح قال: من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع. وبالطبع يجب أن نهتم بما هو صحيح وما هو زائف، فقد قال المسيح: فبالحقيقة تكونون أحرارا.

١٠. لا تركن إلا إلى الحقيقة

إننا نتخلى عن الحرية حين نتخلى عن الحقيقة، فإذا لم يكن هناك شيء صادق أو صحيح، فلا يمكن لأحد أن ينتقد السلطة، لأنه لا يوجد أساس يستند إليه في ذلك، وإذا لم يكن هناك شيء حقيقي، فإن كل شيء هو مشهد تمثيلي يسلط فيه أغنى الأغنياء الأضواء الباهرة فيعشي أبصار الجمهور.

إننا نخضع للاستبداد عندما نتخلى عن الفرق بين ما نريد أن نسمعه وبين ما هو واقع الحال، وقد يمنحنا هذا التخلي عن الواقع شعورا قد يكون أحيانًا عفويًا ومريحًا، ولكن النتيجة هي اندثارك كفرد، وبالتالي انهيار أي نظام سياسي يعتمد على استقلال الفرد، وكما لاحظ دارسو الاستبداد الشمولي مثل فيكتور كلمبيرر فإن الحقيقة تموت عبر أربعة أنماط قد رأيناها كلها عن كثب.

النمط الأول: هو العداء المكشوف للحقيقة الصريحة، ويتبدى هذا النمط في إيراد المزاعم والأكاذيب كما لو كانت حقائق. ويمارس الرئيس ذلك بنسبة عالية وبوتيرة متتالية، وأظهرت إحدى المحاولات لتعقب أقواله خلال حملة انتخابات ٢٠١٦ أن ٧٨٪ مما ادعى أنه حقيقي كان غير صحيح، وهي نسبة عالية لدرجة تجعل تأكيده على صحتها يبدو وكأنه عقبة عَرَضية في الطريق إلى الخرافة الشاملة، وهو أمر يشكل استخفافاً بالبشر لأنه بداية لإنشاء عالم خيالي بديل عن الواقع.

النمط الثاني: تعاويذ الكُهّان. وقد أظهر كلمبيرر أن الأسلوب الفاشي يعتمد على تكرار لا يتوقف لجمل بعينها حتى ترسخ في الأذهان وتقلب العقول ويصبح ما هو محض خيال مقبولاً وما هو إجرامي مرغوباً، وأدى الاستخدام المنهجي المتكرر لألقاب مثل تِد الكذاب وهيلاري الملتوية إلى أن ابتعدت عن الرئيس بعض الخصال

الشخصية الألصق به، ومن خلال التكرار الفظ على تويتر تمكن رئيسنا من تعليب الأفراد في قوالب نمطية تواترت على ألسن الناس، ولم تكن الهتافات المتكررة في التجمعات مثل "ابنِ هذا الجدار" و"احبسها" وصفًا لأمر كان لدى الرئيس خطط محددة للقيام به، لكن هذه الشعارات والهتافات القوية كانت الصلة بينه وبين جمهوره.

النمط الثالث: الوعود السحرية، أو التبني المكشوف للتناقضات، فقد تضمنت حملة الرئيس الوعود بخفض الضرائب للجميع، والقضاء على الديون الحكومية، وزيادة الإنفاق على النواحي الاجتماعية وعلى الدفاع، وهي وعود يناقض بعضها بعضًا، وهي أشبه بقول أحد المزارعين إنه سيأخذ بيضة من حظيرة الدجاج، وسيسلقها ويطعمها زوجته، ثم سيقليها مخفوقة ويطعمها أطفاله، ثم سيعيدها

سليمة لتقعد عليها الدجاجة، ويترقب أن يفقس الصوص عن قريب.

ولا يمكن قبول كذب صارخ من هذا النوع إلا في حالة التخلي التام عن المنطق، وقد وصف كلمبيرر ظاهرة الوعود السحرية وكيف غرق فيها أصدقاؤه في ألمانيا في عام ١٩٣٣، والمخيف أن نشهدها تكرر اليوم، فقد طالبه أحد تلاميذه السابقين: أن يعزل نفسه عن مشاعرها وأن يركز دائمًا على عظمة الفوهرر، بدلاً من التركيز على الضيق الذي يشعر به الآن! وبعد مرور ١٢ سنة وبعد كل الفظائع وبعد انتهاء الحرب بخسارة ماحقة لألمانيا، قال لكليمبرر جنديٌّ فقد أطرافه في الحرب: إن هتلر لم يكذب البتة، أنا لا أزال أصدق هتلر.

والمحصلة النهائية لهذا النمط هو الإيمان في غير موضعه، الإيمان بالمزاعم المغلوطة التي قدمها الرئيس

عندما قال: أنا الوحيد الذي يستطيع حل مشاكلكم. أو: أنا صوتكم. وعندما ينحدر الإيمان من السماء إلى الأرض بهذه الطريقة، لا يبقى هناك مكان للحقائق البسيطة التي يقودنا إليها إدراكنا وخبرتنا الفردية، وقد شعر كلمبيرر بالذعر لأن هذا التحول بدا سلوكًا دائمًا، وحين تصبح الحقيقة ادعاءات تلوكها الألسن لا حقائق تراها الأعين، فإن طلب البراهين يصبح غير ذي جدوى، وفي نهاية الحرب، قال أحد العمال لكليمبرر: لن يفيدنا فهم ما يجري، علينا أن نؤمن بما يجري، وأنا أؤمن بالفوهرر.

وفي الثلاثينات من القرن العشرين شاهد يوجين إيونِسكو، الكاتب المسرحي الروماني العظيم، أصدقاءه واحداً تلو الآخر ينحدرون نحو اللغة الفاشية، وبوحي من هذه التجربة المريرة كتب في سنة ١٩٥٩ مسرحيته العبثية: وحيد القرن، حيث يتحول أولئك الذين يقعون فريسة للدعاية إلى وحوش عملاقة ذات قرون، وتحدث إيونسكو

عن تجربته الشخصية فقال: كان أساتذة الجامعات والطلاب والمثقفون واحدا تلو الآخر يتحولون إلى النازية، أو ينخرطون في الحرس الحديدي، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا نازيين في بداية التحول، وكنا حوالي خمسة عشر صديقا نجتمع لنتناقش ونحاول أن نبين لهم خطأ الدرب الذي بدأوا يسيرون فيه، وهو أمر لم يكن من السهل... فمن وقت لآخر كان أحد هؤلاء الأصدقاء يقول: بالتأكيد أنا لا أوافقهم على ما يفعلونه، ولكن يجب أن أعترف أنهم على صواب في بعض الأمور مثل موقفهم من اليهود... وما يشبه هذه الأقوال، ولكنه بعد مرور ثلاثة أسابيع سيصبح نازيًا، لقد وقع في المصيدة الهائلة، وتقبِل كل دعاويهم، وأصبح وحيد القرن، وفي نهاية الأمر لم يبق منا من يقاوم سوى ثلاثة أو أربعة.

لقد أراد إيونسكو أن يرينا أن دعاية المستبدين هي في الواقع شديدة الغرابة ولكنها تبدو جد عادية لأولئك الذين

يرضخون لها، وباستخدام الصورة السخيفة لوحيد القرن حاول إيونسكو أن يصدم الناس لينتبهوا إلى غرابة ما كان يحدث.

واليوم يجوب وحيد القرن خلايانا العصبية، ونجد أنفسنا اليوم مهتمين جدا بشيء نسميه: ما بعد الحقيقة، ونميل إلى الاعتقاد أن ازدراءه للواقع اليومي وتكوينه لواقع خيالي بديل أمر جديد أو يندرج في عصر ما بعد الحداثة، ولكن علينا أن نتنبه أن جورج أورويل قد ذكر قبل ٧٠ سنة أكثر ما نراه اليوم عندما تحدث عن التفكير المزدوج، إن فلسفة ما بعد الحقيقة تبعث من الموت الموقف الفاشستي من الحقيقة، ولذا لن يجد كليمبيرر أو إيونسكو ما يستغربانه في عالمنا اليوم.

احتقر الفاشيون الوقائع البسيطة للحياة اليومية وأُغرموا بالشعارات الرنانة التي بشرت بدين جديد،

وفضلوا الأساطير الخلاقة على حقائق التاريخ وأخبار الصحف، واستخدموا وسائل الإعلام الجديدة، والتي كانت المذياع في ذلك الوقت، لدق طبول الدعاية وإثارة المشاعر ليحولوا بين الناس وبين تمحيص الحقائق، واليوم، ومثلما حدث في ذلك الوقت، التبس على كثير من الناس إيمانهم بقائد مليء بالعيوب مع الحقيقة حول العالم الذي نعيش جميعا فيه.

إن دعوى ما بعد الحقيقة ليست إلا تمهيدا للفاشية.

١١. تحقق

تبين الأمور بنفسك، وخصص وقتًا أكثر لقراءة المقالات الطويلة، ساند صحافة البحث والاستقصاء من خلال الاشتراك في وسائل الإعلام المطبوعة، وتيقن أن بعض ما هو موجود على شبكة الإنترنت إنما هو هناك لإيقاع الضرر بك، تعرف على المواقع التي تنبش حقائق الحملات الدعائية التي يدار بعضها من الخارج، وراع المسؤولية فيما تشارك به في تواصلك مع الآخرين.

ما هي الحقيقة؟ في بعض الأحيان يسأل الناس هذا السؤال لأنهم لا يرغبون في القيام بأي شيء، وهذه السخرية المريرة تجعلنا نشعر أننا نواكب الأحداث مثل غيرنا بل وأفضل من غيرنا، في حين أننا ننزلق مع مواطنينا إلى مستنقع اللامبالاة.

إن ما يميزنا كأفراد هو قدرتنا على تمحيص الحقائق، وإن ما ينظمنا كأفراد في مجتمع هو إيماننا الجماعي بالبديهيات المشتركة، وإن الفرد الذي يمحص هو أيضا المواطن الذي يبني، وإن الزعيم الذي لا يحب التمحيص إنما هو مشروع استبداد.

وخلال الحملة الانتخابية ادّعى الرئيس من خلال منصة إعلامية روسية أن: وسائل الإعلام الأمريكية كانت غير صادقة بشكل لا يعقل. ومنع عديداً من الصحفيين من حضور تجمعاته، وكثيراً ما أثار كراهية الجمهور للصحفيين، وكما يفعل قادة الأنظمة الاستبدادية وعد الرئيس بقمع حرية التعبير من خلال القوانين التي تمنع النقد، ومثلما فعل هتلر، استخدم الرئيس كلمة الأكاذيب لوصف الأخبار الصادقة التي لا تروق له، وصوّر الصحافة على أنها تشن حملة ضده، في حين الرئيس أكثر مودة مع

الإنترنت التي كانت مصدره للمعلومات الخاطئة التي نقلها إلى الملايين من الناس.

وقد أجرت عالمة السياسة حنة أرندت دراسة في سنة ١٩٧١ حول الكذب الذي مارسته الولايات المتحدة في حرب فيتنام، وتوصلت في خاتمتها لاستنتاج مريح وهو أنه في المجتمعات الحرة تتمتع الحقائق بقوة متأصلة تمكنها في نهاية الأمر من دحض الأكاذيب، وقالت: في الظروف العادية، فإن الكذاب سيلقى الهزيمة على يد الواقع الذي ليس له بديل، فمهما كان الكذاب ذا خبرة فلن يستطيع بما ينسجه من أباطيل أن يغطي الحقيقة، وحتى لو استعان بأجهزة الحاسوب، لتغطية الواقع الذي يلمسه الجميع.

وما قالته حنة أرندت عن الحواسيب لم يعد صحيحا، ففي الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٦، كان عالم الإنترنت ثنائي الأبعاد أكثر أهمية من عالم الاتصال البشري

ثلاثي الأبعاد، وعندما دق المرشحون أو ممثلوهم أبواب الناس فوجئوا أن كثيراً من المواطنين الأمريكيين كانوا يفركون أعينهم غير مصدقين أنهم سيناقشون مواقفهم السياسية مع إنسان من لحم ودم، فقد اعتادوا أن يتلمسوا تأكيد وجهات نظرهم من خلال صفحاتهم على فيسبوك، لقد نشأت داخل عالم الإنترنت الثنائي الأبعاد تجمعات جديدة لا تُرى في ضوء النهار، إنها قبائل لها وجهات نظر محددة للعالم ولا يصعب التلاعب بها، ونعم، هناك مؤامرة يمكنك العثور عليها عبر الإنترنت: إنها تلك التي تبقيك على الإنترنت تبحث عن المؤامرات!

إننا نحتاج إلى الصحافة المقروءة حتى تكتمل الصورة في صفحات وتختمر في أذهاننا على مهل. ماذا يعني، على سبيل المثال، أن يقول الرئيس إن مكان النساء هو المنزل، وأن الحمل هو مجرد إزعاج، وأن الأمهات العاملات لا يوفين العمل كامل حقه، وأن النساء يجب أن

يعاقبن على الإجهاض، وأن النساء ساذجات أو خنازير أو كلاب، وأن من المقبول الاعتداء عليهم جنسيًا؟ ما الذي يعنيه أن ستًا من شركات الرئيس قد أفلست، وأن شركات الرئيس قد تم تمويلها من خلال أموال غامضة ضختها كيانات في روسيا وكازاخستان؟ يمكننا أن نعرف هذه الأشياء من وسائل الإعلام المختلفة، ولكننا عندما نعرفها من الوسائل المرئية، فإننا نميل إلى أن نراها بمنطق المشهد المسرحي، وهكذا فإن خبر الفضيحة الأولى يثير شهيتنا للفضيحة التالية، ودون أن نشعر يترسخ في أذهاننا أننا نتفرج على مسرح الواقع بدلاً من التفكير في الحياة الحقيقية، وهكذا لا يمكن لأي صورة أن تضر الرئيس سياسيًا، لأن مسرح الواقع ينبغي أن يكون أكثر تشويقًا مع كل حلقة، فإذا عثرنا على شريط فيديو لرئيس يقوم برقصات القوزاق على تصفيق فلاديمير بوتين، فإننا ربما نطلب نفس الشيء

من الرئيس الذي يرتدي بدلة دب ويضع الروبل الروسي في فمه.

ويمنحنا الصحافيون المحنكون الفرصة لنفكر فيما قد يبدو أحداثًا معزولة متفرقة، ولنتأمل مغزى ما نقرأ وانعكاسه علينا وعلى بلدنا، وفي إمكان أي شخص أن يعيد تحميل مقال سبق نشره إلا أن البحث في الأحداث وصياغة الأخبار وتحليلها عمل شاق يتطلب وقتا ومالا، وقبل أن نسخر من وسائل الإعلام المألوفة أو السائدة ينبغي أن نلاحظ أنها لم تعد مألوفة أو سائدة، ومن السخرية أن نعتبرها هي السائدة أو أن نعتقد أنها سهلة الإنتاج، فالصحافة الجادة متعبة وصعبة، ولو أردت أن تعرف مقدار صعوبتها حاول أن تكتب مقالة جدية تتضمن حدثًا حقيقيًا قد وقع، وتخيل ما تتطلبه من السفر وإجراء المقابلات والاتصال المستمر مع مصادر المعلومات، والبحث في المراجع والسجلات المنشورة، والتحقق من كل حدث

وادعاء ثم كتابة المسودات ومراجعتها، وعمل كل ذلك وفق جدول زمني مضغوط لا يرحم، فإذا وجدت أنك تحب القيام بذلك فلتبدأ بإنشاء مدونة وثابر على الكتابة فيها، وفي نفس الوقت دعونا نقدر مجهود أولئك الذين يكسبون لقمة العيش من خلال ذلك، ولا أزعم أن الصحفيين فئة مثالية فوق الناس ذوي المهن الأخرى، ولكن شتان في الجودة والصدق بين عمل من يلتزمون بالمعايير الصحفية وبين من لا يلتزمون.

وإذ لا نجد أية غرابة في أن ندفع أجرة للسباك أو الميكانيكي، فإن الغرابة أننا نريد الحصول على أخبارنا مجانًا، ونحن لا نتوقع تدفق الماء أو توفر السيارة إذا لم ندفع أجر السباكة أو أجور تصليح السيارة، فكيف نريد أن نبني رأينا السياسي دون أن نستثمر فلسًا واحداً، في هذه الحالة ستكون قيمة أخبارنا تعادل الصفر.

وإذا كنا نسعى وراء الحقائق فإن شبكة الإنترنت تعطينا إمكانية لنشرها لم يسبق لها مثيل، ولم يكن لدى المفكرين الذي ذكرناهم في هذا الكتيب أي شيء مشابه لها، قد يفيد أن نذكر أن ليزيك كولاكوفسكي، الفيلسوف البولندي العظيم والمؤرخ الذي اقتبست منه هذا الكتاب، حُرم من الأستاذية في جامعة وارسو لأنه جاهر بمعارضته للنظام الشيوعي، ولم ينشر له أحد كتاباته، وقد اقتبست أول اقتباس في هذا الكتاب من كتيب كتبته حنة أرندت بعنوان: نحن اللاجئون. وهو إنجاز خارق إذ كتبه شخص نجا من النظام النازي المجرم، ونحن إذ نُعجب اليوم بمفكر لامع مثل فيكتور كليمبيرر، فإن محور ذكراه هي جسارته في إصراره على كتابة يوميات سرية عن الحياة تحت الحكم النازي، وكانت هذه اليوميات هي التي أبقته في عداد الأحياء، قال كليمبيرر: كانت كتابة اليوميات تشكل قطب التوازن في حياتي ولولاها لتعثرت آلاف المرات. وأهدى

المفكر فاتسلاف هافيل، أحد كبار المنشقين الشيوعيين في السبعينيات، مقالته الأكثر أهمية؛ قوة الضعفاء، لفيلسوف لقي نحبه بعد فترة وجيزة من استجوابه من قبل الشرطة السرية الشيوعية التشيكوسلوفاكية، وبالطبع فما كان ليستطيع نشر كتيبه هذا، واضطر لتوزيعه سراً في أعداد محدودة، بالنهج الذي أسماه آنذاك الأوروبيون الشرقيون؛ المنشورات samizdat، تقليداً للمعارضين الروس.

قال هافيل: إذا كان حجر أساس النظام المستبد هو العيش في ظل الكذب، فلا غرابة أن يشعر أن أكبر خطر عليه هو أن نعيش الحقيقة. وحيث أصبحنا كلنا ناشرين بفضل عصر الإنترنت، فإن كل منا يتحمل حصته من المسؤولية عن استعياب الجمهور للحقيقة، وإذا كنا جادين في البحث عن الحقائق، فكل منا يستطيع القيام بثورة صغيرة في طريقة عمل الإنترنت، فلو تحققت بنفسك من صحة المعلومات فلن ترسل أخباراً كاذبة إلى الآخرين، وإذا كنت لا تتابع إلا

الصحفيين الذين تثق بهم على أسس متينة، فيمكنك أيضاً أن تشارك ما يقدمونه مع الآخرين، وإذا كنت لا تعيد إرسال التغريدات إلا إن صدرت عن أشخاص التزموا بأصول المهنة الصحفية، فستكون أقل عرضة للانحدار بتفكيرك إلى مستوى إعجابات الإنترنت ومتصيديها.

وإذا كنا لا نرى العقول التي نؤذيها بنشرنا للأكاذيب، فهذا لا يعني أننا لم نسبب الأذى، وهذا يشبه قيادتنا للسيارات، فنحن قد لا نرى وجه السائق الآخر، ولكننا نتجنب الاصطدام بسيارته، لأننا نعلم أن الضرر سيصيبنا كذلك، ولذا فإننا ولعشرات المرات يومياً نحمي السائقين الآخرين دون رؤيتهم، وبالمثل فنحن قد لا نرى الشخص الآخر أمام شاشة حاسوبه إلا أننا نتحمل حصتنا من المسؤولية عما يقرأ، وإذا استطعنا ألا نعتدي على عقول الآخرين غير المرئيين على الإنترنت، فإن الآخرين

سيتعلمون فعل الشيء نفسه، وربما بعدها تتوقف مسارات الإنترنت عن أن تبدو وكأنها حادث سير مروع.

١٢. تحدث مع الناس وانظر في عين محدثك

وهذا ليس أمراً يمليه التهذيب فحسب بل هو واجب لكونك مواطنا وعضوا مسؤولا في المجتمع، وهو إلى جانب ذلك أفضل طريقة لتجاوز الحواجز الاجتماعية وللتواصل مع من حولك، ولمعرفة من يستحق أن تثق به ومن يجب ألا تثق به، وإذا كنت تدلف إلى ثقافة تسودها الشكوك المتبادلة فلا غنى لك عن معرفة التضاريس السيكولوجية للحياة اليومية.

وقد نشأت الأنظمة الاستبدادية في أوقات وأمكنة مختلفة في أوروبا في القرن العشرين، ولكن مذكرات ضحاياها تظهر مرورها كلها بمنعطف اجتماعي مؤلم، ابتداء من إيطاليا الفاشية في عشرينيات القرن العشرين، أو ألمانيا النازية في الثلاثينيات، أو الاتحاد السوفييتي أثناء

الرعب العظيم في ١٩٣٧-١٩٣٨ أو التطهير الشيوعي في أوروبا الشرقية في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وذلك عندما تغير الناس من حول المعارضين، ويتذكر هؤلاء كيف تعامل معهم جيرانهم تحت وطأة الخوف من القمع، وكم كان جميلا أن يتلقوا ابتسامة أو تحية أو مصافحة أو ما يماثلها إضافة إلى المجاملات البسيطة التي تصبح لها أهمية كبيرة في تلك الظروف، ولقد أصبح الخوف هو سيد الموقف عندما أشاح الأصدقاء والزملاء والمعارف بنظرهم بعيدا أو ذهبوا للجانب الآخر من الشارع تجنبًا للقاء، وقد لا نعرف من بيننا أولئك الذين يشعرون بالخوف من النظام، ولكن إذا كنا على صلة بالجميع، فلا شك أن هؤلاء سيشعرون أن الدنيا لا تزال بخير.

وعندما يحتدم الخطر، فإن الذين يفرون ويكتب لهم العيش لا يعدمون في العادة أشخاصا يمكنهم الوثوق بهم،

وفي هذه الحالات فإن اللجوء للأصدقاء القدامى هو رأسمال المفلس، ولكن كسب أصدقاء جدد هو الخطوة الأولى نحو التغيير.

١٣. اهجر الأريكة

إن السلطة تريد أن يترهل بدنك في أريكتك، وأن تنفِّس مشاعرك عبر الشاشة المسطحة، فإذا كنت تريد الحفاظ على حريتك فاخرج إلى الشارع، واذهب للتعرف على أماكن جديدة وأشخاص لم يسبق لك لقاؤهم، وامدد إليهم يد الصداقة وصاحبهم.

ولا تنجح مقاومة الاستبداد، إلا بعد تجاوز عائقين، أولهما: أن يؤمن بفكرة التغيير جماعات الناس من شتى المشارب وممن لا يتفقون على كل الأمور، وثانيهما: أن يجتمع الناس خارج منازلهم وفي مجموعات لم تتعارف من قبل. نعم يمكن تنظيم الاحتجاجات من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، ولكن لن يتغير شيء على أرض الواقع ما لم يتحرك الشارع؛ لن يتغير شيء إذا لم يشعر الطغاة بأية عواقب لأفعالهم في عالم الواقع الثلاثي الأبعاد.

وتقدم حركة تضامن العمالية البولندية أحد الأمثلة الناجحة لمقاومة الشيوعية، حين تأسس في سنوات ١٩٨٠-١٩٨١ تحالفٌ ضم العمال وأرباب المهن الحرة وعناصر من الكنيسة الكاثوليكية وجماعات علمانية، وكان قادة تضامن قد تعلموا دروسا باهظة الثمن في ظل الشيوعية، ففي سنة ١٩٦٨ أضرب الطلاب فحشد النظام النقابات العمالية واستخدم العمال لفك الإضراب بالقوة، وفي عام ١٩٧٠ أضرب عمال السفن في غدانسك على ساحل بحر البلطيق فقمعهم النظام بدموية دون أن يحتج أحد على ذلك وصار الدور على العمال ليشعروا بالعزلة، ولكن في عام ١٩٧٦ شكل المثقفون والمهنيون تجمعاً لمساعدة العمال الذين اضطهدتهم الحكومة، وضم أشخاصا من اليمين واليسار ومن المؤمنين والملحدين، وهكذا عادت الثقة للعمال بفضل هذا التجمع الذي ما كانوا ليلتقوا به لولا ظروف المقاومة.

وعندما بدأ العمال البولنديون على ساحل بحر البلطيق في الإضراب مرة أخرى في عام ١٩٨٠، انضم إليهم المحامون والعلماء وغيرهم ممن ساعدوهم في التعريف بقضيتهم، وكانت النتيجة إنشاء اتحاد عمالي حر، فضلاً عن تعهد الحكومة باتباع حقوق الإنسان، وعاشت حركة تضامن ١٦ شهراً قبل أن يتم حظرها، وخلال هذه الشهور انضم إليها عشرة ملايين شخص، وتكونت صداقات جديدة لا حصر لها وسط الإضرابات والمسيرات والمظاهرات، وأخمد النظام الشيوعي البولندي الحركة بإعلان الأحكام العرفية في سنة ١٩٨١، ولكنه احتاج بعد ثماني سنوات، في عام ١٩٨٩، إلى من يتفاوض معه، ولم يكن أمامه إلا حركة تضامن، وعندها أصرت الحركة العمالية على إجراء انتخابات فازت بها، وكانت هذه بداية نهاية الشيوعية في بولندا وأوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي.

إن العمل الشعبي يعتمد كذلك على مقدرتنا على المحافظة على الجوانب الخاصة في حياتنا، ولن نكون أحراراً إلا كنا نحن فقط من يرسم الخط الفاصل بين الخاص وبين العام في حياتنا، وهذا ما يقودنا للنقطة القادمة.

١٤. حافظ على خصوصياتك

سيستخدم الحكام الأشرار ما يعرفونه عنك لإبعادك عن العمل السياسي، فنظف حاسوبك دومًا من البرامج المتلصصة، وتذكر أن ما تكتبه في بريدك الإلكتروني أشبه بالكتابة على عنان السماء يمكن أن يراه كل متطلع، وحاول أن تستخدم بدائل للإنترنت أو قلل من استخدامك لها، استعض عنها باللقاء وجهًا لوجه، ومن ناحية أخرى ولنفس الغرض لا تترك أية مشكلة قانونية معلقة، فالطغاة يبحثون عن مكان في بدنك لينشبوا خطافاتهم فيه، فحاول ألا تمنحهم ذلك.

وعندما استخدمت المفكرة السياسية العظيمة حنة أرندت تعبير الشمولية، لم تقصد به وجود دولة شاملة السطوة، بل انعدام الحد الفاصل في حياة المواطن بين ما هو خاص وبين ما هو عام، ويبقى المرء حراً بقدر ما يستطيع أن

يتحكم في مقدار ما يعرفه الناس عنه وكيف يعرفون ذلك، وقد سرنا – دون أن نشعر – خطوة نحو الشمولية في أثناء الحملة الانتخابية لعام ٢٠١٦، وذلك حين قبلنا كأمر طبيعي أن يتم انتهاك الخصوصية الإلكترونية، وسواء تم ذلك من قبل وكالات الاستخبارات الأمريكية أو الروسية، أو أية جهة كانت، فإن قرصنة المراسلات الخاصة أو مناقشتها أو نشرها يدمر ركنًا أساسيا من حقوقنا، وإذا لم نستطع أن نتحكم بمن يقرأ مراسلاتنا ومتى يقرؤها فلن تكون لدينا القدرة على التصرف في الحاضر أو التخطيط للمستقبل، ذلك أن أي شخص يستطيع النفاذ إلى خصوصياتك فإنه يستطيع إذا شاء إذلالك وتخريب علاقاتك، ولا يستطيع أحد في عالمنا الحالي – ربما باستثناء الطغاة – أن ينأى بحياته الخاصة عن الاختراق والانكشاف إزاء إمكانيات الجهات المعادية.

وفي حملة الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٦ كانت قضية البريد الإلكتروني قنابل موقوتة مثّلت شكلاً قويا من أشكال التضليل، فما كُتب في لحظة معينة يتبين موقعه ومناسبته فقط عندما يوضع في ذلك السياق، وإن من التزوير الشنيع انتزاع هذه الكلمات من سياقها الزمني وإسقاطها على مناسبة أخرى، والأدهى من ذلك أن وسائل الإعلام خانت رسالتها عندما انجرّت وراء قنابل البريد الإلكتروني واعتبرتها أخباراً كما وردت، ولم يبذل إلا قليل من الصحفيين جهداً لشرح سبب قول أو كتابة الأشخاص هذه الكلمات والرسائل في حين قولها أو كتابتها، وفي الوقت نفسه فإن وسائل الإعلام عندما تداولت انتهاكات الخصوصية على أنها أخبار أهملت تغطية الأحداث الفعلية اليومية، وبدلاً من يكون محور الأخبار انتهاك الحقوق الأساسية، فضلت أغلب وسائل الإعلام الأمريكية أن

تنخرط دون تفكير في تغذية الفضول البشري لمعرفة ما يفعله الآخرون.

وقالت حنة أرندت إن شهيتنا لمعرفة ما هو مكتوم أمر خطير العواقب من الناحية السياسية، لأن الحكومات الشمولية تريد إزالة الحد الفاصل بين ما هو عام وبين ما هو خاص، ليس لتقييد الأفراد فحسب، ولكن أيضا لجذب المجتمع ككل بعيداً عن ممارسة السياسة العادية وإغراقه في نظريات المؤامرة، وهكذا وبدلاً من تبين الحقائق أو استنباط التحليلات، يتم إغواؤنا بفكرة الحقائق المخفية والمؤامرات المظلمة التي تفسر كل شيء، وكما تعلمنا من قضية قنابل البريد الإلكتروني، فإن هذه الآلية تعمل حتى عندما يكون المكشوف من خلالها أمراً عاديًا غير ذي أهمية، وتصبح القصة نفسها دائرة على كشف ما كان مكتومًا من قبل، ومن الغريب أن تكون قنوات الأخبار أسوأ في هذا الأمر من الصحفيين في مجال الأزياء أو الرياضة على

سبيل المثال، فصحفيو الأزياء يعرفون أن العارضين يخلعون ملابسهم في غرف التغيير، والصحفيون الرياضيون يعلمون أن الرياضيين يستحمون في غرف خلع الملابس، ولكنهم لا يسمحون لهذه الأمور الخاصة أن تحل محل القصة العامة التي يفترض أنهم يغطونها.

و إننا نشارك في هدم نظامنا السياسي عندما ننساق، في اللحظات التي يختارها الطغاة والجواسيس، وراء الاهتمام المكثف بمسائل مشكوك في أهميتها ، وقد يعترض قائل: إننا لا نفعل سوى ما يفعله الجميع! وهذا صحيح، وهو ما وصفته أرندت بتحول المجتمع إلى الغوغائية.

ويمكننا أن نحاول حل هذه المشكلة بشكل فردي عن طريق الحفاظ على أجهزتنا الكمبيوترية، ويمكننا أيضا أن نحاول حلها بشكل جماعي - على سبيل المثال - من

خلال دعم المنظمات التي تهتم بحقوق الإنسان وخصوصياته.

١٥. شارك في القضايا النبيلة.

كن ناشطًا في المنظمات التي تعبر عن رؤيتك الخاصة للحياة سواءً السياسية منها أو غير السياسية، واختر مؤسسة خيرية أو اثنتين وتبرع لهما بشكل شهري منتظم، وبذا تكون قد قمت بملء اختيارك بدعم المجتمع المدني ومساعدة غيرك على فعل الخير، وهكذا تكون مطمئنًا مهما تقلبت مجريات الأحداث أنك قد قمت بواجبك في المشاركة مع غيرك في الأعمال الخيرية، ويستطيع أغلبنا أن يساعدوا في أحد جوانب الشبكة الواسعة للمؤسسات الخيرية، والتي وصفها أحد رؤسائنا السابقين أنها: ألف نقطة منيرة. ومثل النجوم عند الغسق فإن أفضل وقت لرؤية تلك النقاط المنيرة هو عندما تصبح السماء مظلمة.

وعندما يفكر الأمريكيون بالحرية، فإننا عادة نتخيل سجالاً قطباه فردٌ ضعيف وحكومة قوية، ونميل للحكم بأنه

ينبغي تمكين الفرد وإيقاف الحكومة عند حدها، وهذا أمر سليم لا غبار عليه، ولكن أحد عناصر الحرية هو حرية اختيار الجماعات التي ننخرط فيها، ومن جوانب الدفاع عن الحرية عمل الجماعات للحفاظ على أعضائها، ولهذا السبب يجب علينا الانخراط في الأنشطة التي تهمنا وتهم أصدقائنا وعائلاتنا، وليس بالضرورة أن تكون أنشطة سياسية بحتة، حتى إن فاتسلاف هافيل، المفكر التشيكي المنشق ، ضرب مثالاً باجتماع لتخمير البيرة.

وإن المجتمع المدني ينمو ويقوى بقدر ما نعتز بهذه الأنشطة ونتعرف على غيرنا ممن يشاركنا هذا الاعتزاز، فالمشاركة في أي مشروع تعلمنا كيف نثق بالناس خارج دائرة العائلة والأصدقاء الضيقة، وتساعدنا على التعرف على ذوي الخبرة الذين يمكن أن نتعلم منهم، إن اكتساب الثقة والقدرة على التعلم سيجعلان الحياة تبدو أقل فوضى

وغموضاً، وستجعل العملية السياسية الديمقراطية أكثر قبولاً وجاذبية.

كان المعارضون المناهضون للشيوعية في أوروبا الشرقية يواجهون وضعا أكثر حرجًا مما نراه في أمريكا، ولكنهم وصلوا لقناعة أن أنشطة المجتمع المدني حتى تلك التي لا تبدو ذات طابع سياسي تشكل ممارسة للحرية وضمانة لها، ولا جدال في أنهم كانوا على صواب، فكل أعداء الحرية في القرن العشرين كانوا يعادون المنظمات غير الحكومية والجمعيات الخيرية وما شابهها، وفرض الشيوعيون تسجيل جميع هذه المجموعات رسمياً لتحويلها إلى مؤسسات تحت السيطرة، وابتكر الفاشيون ما وصفوه بنظام النقابوية حيث لكل نشاط مكانه المحدد ودوره المرسوم تحت سيطرة دولة الحزب، أما اليوم فإننا نجد المستبدين في الهند وتركيا وروسيا لديهم كذلك

توجس شديد من فكرة الجمعيات الحرة والمنظمات غير الحكومية.

١٦. لنتعلم من تجارب الآخرين

حافظ على صداقاتك خارج أمريكا أو أنشئ صداقات جديدة في بلدان أخرى، فالعقبات الحالية في الولايات المتحدة إنما هي جزء من توجه عالمي أكبر، ولن تستطيع أي بلد أن تجد الحل بمفردها. بادر باستخراج جوازات سفر لك ولعائلتك.

وكثيراً ما أخطأ الصحافيون الأمريكيون في تقدير الأمور في الحملة الانتخابية التي دامت قرابة سنة وتمخضت عن انتخاب الرئيس ترمب، فقد كان المرشح يتخطى الحاجز بعد الحاجز ويحقق الانتصار تلو الانتصار، وكان معلقونا يؤكدون لنا أنه لن يتجاوز المرحلة القادمة، وأن إحدى المؤسسات الأمريكية العريقة ستوقفه هنا أو هناك، وفي غضون ذلك، كانت هناك مجموعة من المراقبين الذين اتخذوا موقفًا مختلفًا ولم تكن النتيجة النهائية مفاجئة لهم،

وكان هؤلاء أوروبيون شرقيون ودارسون لشرق أوروبا شاهدوا من قبل كثيراً مما يشبه ملامح حملة المرشح ترمب، وكانت توقعات الصحفيين الأوكرانيين والروس الذين قاسوا اتجاه الرياح في الغرب الأوسط الأمريكي أكثر واقعية من مستطلعي الرأي الأمريكيين الذين قضوا أعمارهم في فهم نظام بلدهم السياسي.

وبالنسبة للأوكرانيين، بدا الأمريكيون بطيئين بطئًا مزريـًا في التصدي للتهديدات الواضحة التي مثلتها حرب الإنترنت وترويج الأخبار الزائفة، وكانوا قد مروا بذلك من قبل في عام ٢٠١٣ عندما استهدفت الدعاية الروسية أوكرانيا، وفي حينها كان الصحفيون الأوكرانيون الشباب وغيرهم يردون على التضليل فوراً وبحسم، وأحيانـًا بحملات ساخرة تفضح التزييف، واستخدمت روسيا أثناء غزوها أوكرانيا كثيراً من الأساليب التي استخدمتها فيما بعد ضد الولايات المتحدة، ففي سنة ٢٠١٤ ادعت وسائل

الإعلام الروسية زورا أن القوات الأوكرانية صلبت صبيًا صغيراً، وكان الرد الأوكراني سريعًا وفعالاً على الأقل داخل أوكرانيا نفسها، ولكن وسائل الإعلام الأمريكية في سنة ٢٠١٥ كررت ما نشرته وسائل الإعلام الروسية ومفاده أن هيلاري كلينتون كانت مريضة لا تصلح للرئاسة، وذلك لأنها أشارت في رسالة إلكترونية إلى مقال عن الإرهاق المتعلق باتخاذ القرار، وهو ليس مرضا بل حالة إدارية، وهكذا رأينا فوز الأوكرانيين وخسارة الأميركيين، لأن روسيا فشلت في تحقيق النظام الذي كانت تبتغيه في جارتها، ولكنها شهدت انتصار مرشحها المفضل في الولايات المتحدة، وينبغي أن نتوقف هنا متأملين، لأن التاريخ، الذي طالما انتقل من الغرب إلى الشرق، يبدو أنه ينتقل الآن من الشرق إلى الغرب، وكل ما حدث عندنا سبق وأن حدث هناك.

إن إحدى مشاكل الديمقراطية الأمريكية أن معظم الأمريكيين ليس لديهم جوازات سفر، وكثيراً ما يقول الأمريكيون أنهم لا يحتاجون إلى وثائق سفر لأنهم يفضلون الموت في أمريكا دفاعا عن الحرية، وهي أقوال جيدة لولا أنها تغفل نقطة مهمة وهي أن المعركة ستكون طويلة، وأنها لا شك ستتطلب تضحيات، إلا أنها تتطلب أولاً اهتماما مستمرا بالعالم من حولنا حتى نعرف ما نقاومه، وما هي أفضل الطرق لمقاومته، والحصول على جواز سفر ليس رمزاً للتخلي عن النضال، بل على النقيض إنه مؤشر تحرر لأنه يوفر إمكانية خوض تجارب جديدة تسمح لنا بمعرفة كيف تصرف الآخرون، والذين هم أحيانًا أكثر حكمة منا، مع مشاكل مماثلة، وحيث أن الكثير مما حدث في العام الماضي قد مرّ مثيل له على أنحاء أخرى من العالم وفي التاريخ الحديث، فإن من مصلحتنا أن نتعلم ونستمع.

١٧ . انتبه للكلمات الخطيرة

كن على حذر إذا سمعت كلمات "التطرف" و"الإرهاب"، وخذ أهبتك عندما تسمع تعابير قاتلة مثل الطوارئ والظروف الاستثنائية، واغضب إذا رأيت استخداماً ماكراً ملتوياً يحتكر مصطلحات الوطنية والإخلاص للوطن.

ولم يتردد المنظِّر القانوني كارل شميت، أكثر النازيين ذكاء، من أن يشرح بلغة واضحة جوهر الحكم الفاشي، وأن سبيل تدمير كل القواعد المتبعة هو التركيز على فكرة الظروف الاستثنائية، وأن الزعيم النازي يوقع بخصومه من خلال إيجاد قناعة لدى الجمهور أن الوقت الحالي ظرف استثنائي، ثم يحول هذه الظرف الاستثنائي إلى حالة طوارئ دائمة، وهكذا يستبدل المواطنون الأمان الزائف بالحرية الحقيقية.

وعندما يتذرع السياسيون اليوم بالإرهاب، فلا شك في إنهم يتحدثون عن خطر حقيقي، ولكنهم عندما يحاولون استدراجنا للتخلي عن الحرية باسم الأمن، فيجب أن نكون على أهبة الحذر فلا توجد مقايضة ضرورية بين الاثنين، وفي بعض الأحيان قد نربح أحدهما بخسارة الآخر، ولا يكون الأمر كذلك في أحيان أخرى، وعلينا أن ندرك أن الأشخاص الذين يؤكدون لنا أننا لا نستطيع الحصول على الأمن إلا على حساب الحرية إنما يخفون نيتهم المبيتة في حرماننا من كلا الأمرين.

إن تخليك عن الحرية لن يجعلك بالتأكيد أكثر أمنا، وقد يمنحك الخضوع للسلطة شعوراً بالراحة، ولكن شتان بينه وبين الأمن الحقيقي، وبالمثل قد يكون اكتساب قليل من الحرية أمراً ينتابه شيء من الخشية، ولكن هذا القلق الآني ليس خطيرا، ومن السهل تخيل المواقف التي نضحي فيها بالحرية والأمن في آن واحد: عندما نقيم علاقة عاطفية

أساسها الاستغلال والإيذاء، أو ندلي بصوتنا لمرشح فاشي، وفي المقابل، ليس من الصعب تخيل الخيارات التي تزيد من الحرية والأمان على حد سواء، مثل الانفكاك عن شخص يستغلنا ويؤذينا أو الهجرة من دولة فاشية، وعلينا ألا ننسى أن واجب الحكومة هو زيادة مساحة الحرية وتوطيد الأمن.

ولا شك أن لكلمة التطرف وقعًا سيئًا في المسامع، وكثيراً ما تحاول الحكومات جعل وطأتها أسوأ من خلال استخدام كلمة الإرهاب في نفس الجملة، ولكنها كلمة ليس لها معنى محدد، فلا توجد عقيدة تسمى التطرف، وعندما يتحدث الطغاة عن المتطرفين، فإنهم يقصدون الناس الذين لا يسايرون الموجة الغالبة، والتي يقف الطغاة أنفسهم وراء مسارها الراهن، وطالما أطلق الفاشيون والشيوعيون لفظ المتطرفين على معارضيهم في القرن العشرين، وتستخدم الأنظمة الاستبدادية الحديثة، مثل روسيا، قوانين الحد من

التطرف لمعاقبة الذين ينتقدون سياساتها، وقد صيغت هذه القوانين لتجعل مفهوم التطرف يشمل كل شيء تقريباً إلا ما هو متطرف فعلاً، ألا وهو: الطغيان!

١٨. حافظ على هدوئك عند وقوع المحذور

إن محور الطغيان الحديث هو استغلال الإرهاب، فتذكر عند وقوع هجوم إرهابي أن المستبدين يستغلون مثل هذه الأحداث لتوطيد سلطتهم، وأن أقدم خدعة لدى النازية هي القول إن الكارثة المباغتة تتطلب الاستغناء عن الضوابط والتوازنات وحل أحزاب المعارضة وتعليق حرية التعبير والحق في إجراءات قضائية عادلة، وما إلى ذلك، فعليك ألا تنساق وراء هذا الكلام المعسول.

لقد وصلت حكومة هتلر إلى السلطة في المجمل من خلال الوسائل الديمقراطية، ولكن لحظة إحراق البرلمان كانت هي اللحظة التي أصبح فيها النظام النازي نظامًا دائمًا، وذلك هو المخطط الأساسي لاستغلال الإرهاب.

في الساعة التاسعة من مساء ٢٧ فبراير ١٩٣٣ دب الحريق في مبنى البرلمان الألماني (الرايخستاغ). من أضرم النار في تلك الليلة في برلين؟ نحن لا نعرف، وليس ذلك مهما، ما يهم هو أن هذا العمل الإرهابي الاستعراضي مهد لسياسة إعلان حالة الطوارئ، وقال هتلر وهو يحدق بكل سرور في ألسنة اللهب تلك الليلة: هذا الحريق ليس إلا البداية. وسواء كان النازيون من أشعل النيران أم لا، فإن هتلر انتهز الفرصة السياسية الذي واتته وقال: لن تكون هناك رحمة بعد اليوم، وسيتم تركيع أي شخص يقف في طريقنا. وفي اليوم التالي أصدر مرسومًا علّق فيه الحقوق الأساسية لجميع المواطنين الألمان، وسمح للشرطة باحتجازهم احتجازا وقائيًا، وتحت تأثير ادعاء هتلر أن الحريق كان من عمل أعداء ألمانيا، حقق الحزب النازي نصرا حاسما في الانتخابات البرلمانية في ٥ مارس، وبعدها بدأت الشرطة والمسلحين النازيين في القبض على أعضاء الأحزاب

السياسية اليسارية وإيداعهم معسكرات الاعتقال التي أنشئت على عجل لاستيعابهم، وفي ٢٣ مارس أقر البرلمان الجديد "قانون تمكين" سمح لهتلر أن يحكم بالمراسيم ودون العودة للبرلمان، وهكذا ظلت ألمانيا تحت حالة الطوارئ مدة ١٢ سنة وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لقد استخدم هتلر عملاً إرهابيًا، وحدثًا ذا أهمية محدودة بذاته، ليرسي قواعد نظام إرهابي قتل ملايين الناس وغيَّر وجه العالم.

ومستبدو اليوم هم أيضًا يستغلون الإرهاب، ولكن بطريقة أكثر إبداعًا، وإذا تأملنا النظام الروسي الحالي الذي يُعجب به الرئيس ترمب، فسنرى أن فلاديمير بوتين جاء إلى السلطة في حادثة تشبه شبهًا شديداً حريق البرلمان الألماني، ثم استخدم سلسلة من الهجمات الإرهابية، ولن نجادل إن كانت حقيقية أو مشكوكًا فيها أو ومزيفة، لإزالة العقبات

أمام بسط سيطرته الكاملة على روسيا والاعتداء على دول الجوار الديمقراطية.

فعندما كان بوريس يلتسين في حالة ضعف متزايدة، عيّن في أغسطس ١٩٩٩ فلاديمير بوتين رئيسًا للوزراء، وكان إذ ذاك شخصًا غير معروف، ليس له تأييد يذكر لدى الرأي العام، ثم بدأت سلسلة من التفجيرات في المدن الروسية دبرتها على ما يبدو المخابرات الروسية، فقد قبض بعض ضباطها على زملائهم مع الأدلة التي تدينهم، وفي واقعة أخرى أعلن رئيس البرلمان الروسي عن انفجار قبل أيام قليلة من وقوعه، ومع ذلك، أعلن بوتين حرب الثأر ضد مسلمي روسيا في الشيشان، ووعد بملاحقة الجناة المزعومين "وتمريغ وجوههم في حفر الغائط".

واصطف الشعب الروسي وراء بوتين، وارتفعت معدلات تأييده لدى الرأي العام، وفاز في الانتخابات

الرئاسية التي جرت في مارس سنة ٢٠٠٠، وفي سنة ٢٠٠٢ وقع هجوم إرهابي حقيقي على مسرح موسكو، واقتحمت قوات الأمن الروسية المسرح وقتلت في عمليتها عشرات من المدنيين الروس، واستغل بوتين هذه الفرصة ليستولي على محطات التلفاز الخاصة ويتحكم بها، وفي سنة ٢٠٠٤ حاصر الإرهابيون مدرسة في بيسلان، في ظروف مريبة توحي بالاستفزاز، وعلى إثر ذلك ألغى بوتين الانتخاب لمنصب محافظي الأقاليم، وجعله بالتعيين، وهكذا صعد بوتين إلى السلطة وقضى على اثنتين من مؤسساتها الكبرى: التلفاز الخاص والحكومات الإقليمية المنتخبة، وكان الفضل في ذلك لاستغلاله للإرهاب الحقيقي و المزيف والمشكوك في أمره.

وبعد عودة بوتين إلى الرئاسة في عام ٢٠١٢ أدخلت روسيا استغلال الإرهاب في سياستها الخارجية، وعندما غزت أوكرانيا في عام ٢٠١٤، حولت روسيا وحدات من

جيشها النظامي إلى قوة إرهابية، لا ترتدي الزي العسكري الرسمي أو تضع الشارات العسكرية المعهودة، وأنكرت أية مسؤولية لها عن المعاناة المروعة التي تسببت بها هذا الفرق، وعند هجومها على منطقة دونباس في جنوب شرق أوكرانيا، نشرت روسيا قوات شيشانية غير نظامية وأرسلت وحدات من جيشها النظامي المتمركز في المناطق الإسلامية من روسيا للانضمام إلى الغزو، ثم حاولت روسيا، بيد أنها فشلت، تدبير اختراق إلكتروني لانتخابات الرئاسة الأوكرانية لعام ٢٠١٤.

وفي أبريل ٢٠١٥، اخترق متسللون إلكترونيون من روسيا محطة تلفزيونية فرنسية، متظاهرين أنهم من داعش، ثم بثوا موادَّ تهدف إلى ترويع الفرنسيين، وقد تقمصت روسيا شخصية الخلافة لتبث الذعر في قلوب الفرنسيين من الإرهاب أكثر مما كانوا عليه فعلاً، وكان الهدف النهائي هو دفع الناخبين لتأييد الجبهة الوطنية اليمينية المتطرفة، وهي

حزب تدعمه روسيا من الناحية المالية، وبعد مقتل ١٣٠ شخص وإصابة ٣٦٨ في الهجوم الإرهابي على باريس في نوفمبر ٢٠١٥، ابتهج مؤسس مركز أبحاث مقرب من الكرملين لأن الإرهاب سيقود أوروبا نحو الفاشية وروسيا. وهكذا فإن روسيا ترى أن الإرهاب الإسلامي المزيَّف والحقيقي في أوروبا الغربية يصب في مصلحة روسيا.

في أوائل عام ٢٠١٦، صنعت روسيا قصة من الإرهاب المزيف في ألمانيا في الوقت الذي كانت تقصف فيه المدنيين في سوريا، وتدفع اللاجئين المسلمين للهجرة إلى أوروبا، وجرى ذلك حين استغلت روسيا مأساة عائلية لتدخل في روع الألمان أن المسلمين كانوا مغتصبين للأطفال، وهنا كان الهدف كذلك زعزعة استقرار النظام الديمقراطي والترويج لأحزاب اليمين المتطرف.

وكانت الحكومة الألمانية قد أعلنت في سبتمبر ٢٠١٥ أنها ستستوعب نصف مليون لاجئ من الحرب في سوريا، فبدأت روسيا بعدها حملة قصف في سوريا استهدفت المدنيين وكأنها تدفعهم دفعًا للهجرة، وبعد أن كانت وراء هجرة اللاجئين، قامت روسيا بحبك الرواية للتخويف منهم، وجرى ذلك حين نشرت وسائل الإعلام الروسية في يناير ٢٠١٦ قصة مفادها أن فتاة مسلمة من أصل روسي في ألمانيا كانت قد اختفت فجأة قد جرى اغتصابها جماعيا من قبل المهاجرين المسلمين، وفور نشر الخبر بادرت المنظمات اليمينية في ألمانيا على الفور، وبهمة تثير الشكوك، في تنظيم احتجاجات ضد الحكومة، وعندما نفت الشرطة المحلية حدوث هذا الاغتصاب، اتهمتها وسائل الإعلام الروسية بالتغطية على الخبر، وحتى الدبلوماسيون الروس انضموا للجوقة الكاذبة.

وعندما يتحدث الرئيس الأمريكي ومستشاره للأمن القومي عن مكافحة الإرهاب إلى جانب روسيا، فإن ما يعنون قوله للشعب الأمريكي هو استغلال الإرهاب: استغلال الهجمات الإرهابية الحقيقية والمشبوهة والمزيفة حتى يتمكنوا من إسقاط الديمقراطية، ويظهر ذلك بجلاء في التصريح الروسي حول مضمون المكالمة الهاتفية الأولى بين الرئيس وبين فلاديمير بوتين: إن الرجلين يتشاركان الرأي أن من الضروري توحيد قوى البلدين ضد العدو المشترك الأول: الإرهاب والتطرف الدوليين.

لقد تعلم الطغاة من حريق الرايخستاغ درسًا لن ينسوه: لحظة صدمة واحدة تمكننا من تخليد الخضوع، ولكن الدرس الذي ينبغي أن يتعلمه المواطنون ألا يسمحوا في ظل الخوف والحزن الطبيعيين بتدمير المؤسسات الوطنية، ولا تعني الشجاعة ألا يخاف المرء أو ألا يحزن، بل تعني التنبه لمن يريد استغلال الإرهاب ومقاومة

المستغل على الفور ومنذ اللحظة الأولى للهجوم، وعندما تبدو المقاومة أصعب ما يمكن.

لقد أوضح جيمس ماديسون بجلاء أن الاستبداد ينشأ في بعض حالات الطوارئ المواتية، وبعد حريق الرايخستاغ، كتبت حنة أرندت: ما عدت أعتقد أنه يمكن للمرء ببساطة أن يبقى متفرجا.

١٩. كن وطنيا.

كن مثالاً جيداً لما تعنيه أميركا للأجيال القادمة، فسوف يحتاجون للقدوة الحسنة.

ما هي الوطنية؟ دعونا نبدأ بما ليس من الوطنية. ليس من الوطنية أن تتفادى التجنيد العسكري وأن تهزأ بأبطال الحرب وعائلاتهم. ليس من الوطنية أن تمارس التمييز ضد أفراد القوات المسلحة الذين يعملون في شركاتك، أو أن تقوم بحملة لإبعاد المحاربين القدماء المعاقين عن عقاراتك، وليس من الوطنية أن تقارن من كان يجري وراء العلاقات الغرامية في نيويورك مع الذين أدوا الخدمة العسكرية في فيتنام والتي تهربت من أدائها، وليس من الوطنية أن تتجنب دفع الضرائب وبخاصة أن كل العائلات العاملة الأميركية تدفعها، وليس من الوطنية أن يُطلب من هذه العائلات الأمريكية الكادحة، والتي تدفع الضرائب، أن

تمول حملتك الرئاسية، ثم تصرف تبرعاتهم على شركاتك الخاصة.

ليس من الوطنية أن تعبر عن إعجابك بالديكتاتوريين الأجانب، وليس من الوطنية أن تبني علاقة مع معمر القذافي أو أن تقول إن بشار الأسد وفلاديمير بوتين هم قادة أفذاذ، وليس من الوطنية دعوة روسيا للتدخل في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وليس من الوطنية الاستشهاد بالدعاية الروسية في التجمعات.

ليس من الوطنية أن يكون مستشارك شريكًا للمصالح المتنفذة الروسية، وليس من الوطنية أن تطلب المشورة في السياسة الخارجية من شخص يملك حصة في شركة طاقة روسية، وليس من الوطنية أن تقرأ خطابًا في السياسة الخارجية كتبه شخص يتقاضى - فيما يتقاضى - مرتبا من شركة طاقة روسية، وليس من الوطنية تعيين

مستشار للأمن القومي عمل مع جهاز دعاية روسي وتقاضى أجراً منه، وليس من الوطنية تعيين وزير للخارجية كان يعمل في حقل النفط وله ارتباط بمصالح مالية روسية، وهو عضو في مجلس إدارة شركة طاقة روسية أمريكية، وقد منحه بوتين وسام الصداقة.

ونحن هنا لا نقول أن من المحتم أو الواجب أن تكون روسيا وأمريكا متعاديتين، بل نقول إن الوطنية هي خدمة بلدك دون شائبة تحول دون ذلك.

إن منطلق الرئيس منطلق قومي، وهو منطلق يختلف عن الوطنية، فالقومي يستخرج منا أسوأ ما فينا، ثم يخبرنا بأننا الأفضل. وقد كتب أورويل: أن القومي رغم أنه يعيش في ظل هواجس السلطة والنصر والهزيمة والانتقام، فإنه في العادة يكون غير مهتم بما يحدث في العالم الحقيقي. والقومية هي نزعة لا تستند إلى مبادئ مطلقة ثابتة بل تقوم

على النسبية، والحقيقة الوحيدة لديها هي شعور الاستياء عند التفكير في الآخرين، وهي كما قال الروائي دانيلو كيس: ليست لها قيم عالمية أو جمالية أو أخلاقية.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الوطني يريد لأمته أن ترقى إلى مُثلها العليا، وهذا يعني أن نقدم للوطن أفضل ما لدينا، والوطني يهتم بالعالم الحقيقي لأنه المكان الوحيد الذي ينال فيه بلده الحب والازدهار، ويمتلك الوطني قيما ثابتة ومعايير يقيم بها أمته التي يريد لها الخير دائما، ويتمنى أن تكون أفضل مما عليه.

لقد فشلت الديمقراطية في أوروبا في عشرينيات القرن الماضي وأربعينياته، وقد فشلت اليوم ليس في أوروبا فحسب بل في أجزاء كثيرة من العالم، والتاريخ والخبرة هما اللذان يكشفان لنا ما قد يحمله لنا المستقبل من احتمالات سوداء، أما القومي فسيقول: لا يمكن لهذا أن يحدث هنا.

وتلك هي أول خطوة نحو الكارثة، أما الوطني فيقول: يمكن لذلك أن يحدث هنا، لكننا لن ندعه يحدث.

٢٠. كن شجاعا بقدر ما تستطيع.

إذا لم يكن أيٌّ منا مستعدا للموت من أجل الحرية، فسنموت جميعًا تحت وطأة الطغيان.

الخاتمة

التاريخ والحرية

إن هاملت، بطل مسرحية شكسبير الدرامية، رجل فاضل يصدمه أن يتسنم عرش الدانمرك حاكم شرير، وبسبب ذلك يضحي وحيدا منعزلا تطارده الرؤى وتجتاحه الكوابيس، ويشعر أن مسار الزمن قد اختل وأن عليه أن يعيده إلى مساره الصحيح، ويقول هاملت: إننا في زمن مضطرب معوج، ويا له من قضاء جائر أن أكون قد وُلدتُ لكي أقوِّم اعوجاجه! وعصرنا هو بالتأكيد زمن مضطرب معوج، لقد نسينا التاريخ لسبب واحد، وإن لم نكن حذرين، فسنهمله لسبب آخر، وإذا أردنا أن نبقى ملتزمين بالحرية فيجب علينا استعادة إحساسنا بالوقت.

وإلى وقت قريب، كنا نحن الأمريكيين قد أقنعنا أنفسنا أن المستقبل لا يحمل لنا في طياته إلا المزيد مما

نتمتع به اليوم، بل وبدا أن المآسي التي جلبتها الفاشية والنازية والشيوعية صارت من حديث الأمس البعيد، لقد سمحنا لأنفسنا باتِّباع النظرة الحتمية في سياساتنا والاعتقاد أن التاريخ يمكن أن يسير في اتجاه واحد فقط: نحو الديمقراطية الليبرالية، لقد خدرتنا أسطورة "نهاية التاريخ" بعد انتهاء الشيوعية في أوروبا الشرقية في سنوات ١٩٨٩-١٩٩١، ولأننا صدقناها قمنا بتخفيض دفاعاتنا، وتحسين نوايانا، وهو بالضبط ما مهد الطريق لعودة هذه الأنظمة التي أقنعنا أنفسنا أنها لا يمكن أن تعود.

ولا شك أن النظرة الحتمية والسياسات المبنية عليها تبدو للوهلة الأولى مبدأً تجاوزه التاريخ، ولا ينكر من آمن بها من السياسيين أن هناك ماضيا وحاضرا ومستقبلا، ويضفون على الماضي البعيد سرداً تجميليا، ثم يصورون الحاضر في تبسيط بالغ على أنه خطوة نحو مستقبل مألوف، مستقبل تنتشر فيه العولمة ويتعمق فيه صوت المنطق

ويتزايد الازدهار، وهذه النظرة تؤمن بالغائية؛ أي أن لكل أمر غاية محتمة ينتهي إليها، وهي عندما تستعرض سير الزمن تنتهي بالوصول إلى نهاية معينة مرغوبة، وقد فعلت الشيوعية ذلك عندما بشرت بحتمية قيام الاشتراكية الفاضلة، ولما تبخرت هذه الرؤيا قبل ربع قرن، بنينا عليها استنتاجًا خاطئا فبدلاً من رفض الغائية، تخيلنا أن سردنا نحن كان هو المصيب.

إن النظرة الحتمية هي غيبوبة فكرية ندلف فيها بإرادتنا، وقد كان الأمريكيون في السابق مجبرين أن يعيروا التاريخ بعض الاهتمام، وأن يحافظوا على المفاهيم التي سمحت لهم بتخيل مستقبل بديل، وذلك في إبان التنافس بين النظام الشيوعي وبين النظام الرأسمالي، أو في أيام الحركتين الفاشية والنازية، ولكننا بعد ذلك قبلنا بالنظرة الحتمية، وافترضنا أن مجرى التاريخ لم يعد ليتغير، وأنه إذا

كان كل شيء في الماضي يسير في اتجاه معلوم، فلا داعي لإضاعة الوقت في معرفة التفاصيل.

لقد أدى قبولنا للنظرة الحتمية أن أضحت مناقشاتنا حول السياسة في القرن الحادي والعشرين مناقشات ضحلة، لقد خنقنا السجال السياسي وبدأت أنظمتنا الحزبية تتحول إلى نظام يدافع فيه حزب عن الوضع الراهن، بينما يدعو الحزب الآخر لتغييره بالكامل، وتعلمنا أن نقول إنه لا يوجد بديل عن الترتيب الراهن للأمور، وهو شعور وصفه المنظر السياسي الليتواني ليونيداس دونسكيس بأنه الشر المائع، فبمجرد أن أصبحت الحتمية أمراً مسلَّمًا به، تغدو الانتقادات مزلقًا لا عودة عنه، وإذا كان التحليل المسمى "نقديًا" قائمًا في كثير من الأحيان على افتراض أن الوضع الراهن لا يمكن أن يتغير، فإنه في الواقع ليس تحليلاً نقديًا، بل إنه تحليل يقوي الواقع، وإن بطريقة غير مباشرة.

وفي البحث عن البدائل طرح بعضهم النيوليبرالية كبديل قوي يقوم على فكرة أن السوق الحرة ستزيح في النهاية كل منافسيها، وهذا صحيح نوعًا ما وإن كان استخدام هذا المصطلح هو بمثابة تزلف لهيمنة لا يمكن تغييرها.

وتحدث نقاد آخرون عن الحاجة إلى فترات من الاضطراب المربك مستعيرين مصطلحًا يستخدم كثيراً في استشراف نتائج الاختراعات التكنولوجية، ولكن عندما يتم إسقاط هذا المصطلح على حركة السياسة، فإن مضمونه يوحي أنه لا يوجد شيء يمكن أن يتغير حقا، وأن الفوضى التي تثير اهتمامنا سيستوعبها في نهاية المطاف نظام ذاتي التنظيم، مثلها مثل الرجل الذي يركض عاريًا في ملعب لكرة القدم، فهو يعطل المباراة ولكنه لا يغير قواعدها، إن مفهوم الاضطراب المربك يصلح لحالات المراهقة حيث يفترض أنه بعد أن يحدث المراهقون الفوضى سيأتي الكبار

لتنظيفها، ولكن لا يوجد بالغون يأتون بعدنا؛ إنها فوضانا وعلينا تنظيفها.

والطريقة الثانية المضادة للتاريخ في دراسة الماضي هي النظرة السياسية القائمة على الأبدية، وهي تشبه السياسات القائمة على الحتمية في تزويقها أو تزييفها للتاريخ، وإن فعلت ذلك بطريقة مختلفة، فهي تهتم بالماضي، ولكن لا ترى فيه سوى ذاتها ودون أي اهتمام حقيقي بالحقائق، فهي ذات مزاج يتوق إلى لحظات الماضي التي لم تحدث حقا وفي حقب كانت، في الواقع، كارثية.

إن الساسة الذين يستخدمون الأبدية يستحضرون لنا الماضي على صورة ساحة واسعة يتغشاها الضباب وملأى بأنصاب لا يمكن تمييزها تمثل شهداء الوطن، وهذه الأنصاب كلها بعيدة أشد البعد عن الحاضر، ولكنها سهلة

المتناول عندما يريد استغلالها هؤلاء الساسة، وكلما ذكر هؤلاء الماضي فلا بد أن يستعيدوا ذكر هجوم شنه عدو خارجي وأراد به تحطيم الأمة.

إن الشعبويين الوطنيين هم ساسة يعملون وفق النظرة الأبدية، والمنعطف التاريخي المفضل عندهم هو حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين عندما بدا أن الجمهوريات الديموقراطية اندحرت وأن لا شيء سيوقف مد منافسيها من النازيين والسوفييت، وأولئك الذين دعوا لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، تخيلوا وجود دولة قومية بريطانية، رغم أنها لم تكن موجودة أبداً، لقد كانت هناك إمبراطورية بريطانية، ثم كانت هناك بريطانيا كعضو في الاتحاد الأوروبي، ولم تكن حركة الانسحاب من الاتحاد الأوروبي عودة إلى الخلف على أرض صلبة، بل قفزة إلى المجهول، وكان من المخيف عندما أصدر القضاء حكمه بضرورة تصويت البرلمان على الخروج من الاتحاد

الأوروبي، أن تصم صحيفة شعبية بريطانية القضاة بأنهم: أعداء الشعب! وهو مصطلح استخدمته المحاكمات المزيفة أيام ستالين في الثلاثينيات، وفي فرنسا تحث الجبهة الوطنية الناخبين على رفض أوروبا وعلى العودة بفرنسا إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية؛ إلى دولة قومية فرنسية خيالية! ولكن فرنسا، مَثَلُها مَثَلُ بريطانيا، لم يسبق لها وجود دون إمبراطوريتها أو امتداداتها الأوروبية، وكذلك يروج القادة في روسيا وبولندا وهنغاريا، كلٌ على حدة، لمستقبل مبني على تصور براق للثلاثينات.

واستخدم الرئيس ترمب في حملته الانتخابية عام ٢٠١٦ شعار: أميركا أولاً، وهو اسم لجنة تسعى إلى منع الولايات المتحدة من معارضة ألمانيا النازية، وكان من وعود المستشار الاستراتيجي للرئيس الإتيان بسياسات مثيرة مثل سياسات الثلاثينات، وعندما استخدم الرئيس شعار: لنجعل أميركا رائعة مرة أخرى. فما هي المرة

الأخرى التي يتحدث عنها؟ والجواب: إنه نفس المرة الأخرى التي نجدها في "لن يحدث هذا أبداً مرة أخرى!" لقد وصف الرئيس تغيير النظام في أسلوب الثلاثينيات على أنه حل لمشاكل الحاضر عندما قال: تعلمون ما الحل؟ عندما ينهار الاقتصاد، عندما يذهب البلد إلى الجحيم، وتعم المصائب كل شيء. وتابع الرئيس ليفصح عما نحتاجه في رأيه: أعمال شغب للعودة إلى ما كنا عليه عندما كنا عظماء.

ولكن علينا أن نعي أنه في السياسة القائمة على مبدأ الأبدية فإن إغراء الماضي المتخيل سيمنعنا من التفكير فيما يحمله المستقبل من إمكانيات، وأولئك الذين اعتادوا على تقمص دور الضحية إنما يثبطون حافزهم للمراجعة والتصحيح الذاتي، وطبقًا لذلك وحيث أن شخصية الأمة مبنية على أفضليتها الذاتية لا على إمكانياتها المستقبلية، فإن السياسة في هذه الحال تصبح سجالا حول الخير والشر بدلاً

من مناقشة الحلول الممكنة للمشاكل الحقيقية، وبما أن الأزمة مستمرة، فإن الشعور بحالات الطوارئ لن ينتهي، ولذا سيبدو التخطيط للمستقبل مستحيلاً أو ضرباً من الخيانة، فكيف نجرؤ على التفكير في الإصلاح والعدو مترصد على الأبواب؟

وإذا كانت النظرة الحتمية تشبه الغيبوبة، فإن النظرة الأبدية تشبه التنويم المغناطيسي: نحن نحدق في دوامة دوارة من الأساطير المتكررة إلى أن نقع في غيبوبة، وبعدها نقوم بما هو مريع طاعة لأوامر شخص آخر.

إن الخطر الذي نواجهه الآن هو انتقالنا من سياسة مبنية على الحتمية إلى سياسة مبنية على الأبدية؛ من نوع ساذج وناقص من الجمهورية الديمقراطية إلى نوع من الاستبداد الفاشي المشوش والاستخفافي، والسياسة الحتمية عرضة بشكل رهيب لهذا النوع من الصدمات الذي مررنا به

للتو، وعندما تتحطم الأسطورة بسبب أو آخر، وعندها يصبح زمننا مضطربًا عصيبًا، فإننا سنهرع لإيجاد طريقة أخرى لتحليل ما نمر به، وأسهل الطرق حينها هو الذي يقودنا مباشرة من الحتمية إلى الأبدية، فأنت إذا اعتقدت ذات مرة أن الأمور ستسير من ذاتها نحو نهاية جيدة، فمن السهل إقناعك أن النهاية الجيدة لم تحن بعد، والسبب هو أنك من قبل لم تفعل شيئًا لأنك تعتقد أن التقدم أمر لا مفر منه، والآن يمكنك الاستمرار في عدم القيام بأي شيء لأنك تعتقد أن التاريخ يسير في دورات.

وكل من هذه المواقف: الحتمية أو الأبدية، هي مضادة للتاريخ، والشيء الوحيد الذي يفصل بينها هو التاريخ ذاته، فهو الذي يسمح لنا برؤية الأنماط وإصدار الأحكام، إنه يرسم لنا معالم المؤسسات التي يمكننا من خلالها تحقيق الحرية، إنه يكشف لنا عن أوقات، كل واحد منها مختلف، ولكن ليس منها واحد متفرد، وتمام فهم

اللحظة التاريخية أن تدرك أن بإمكانك أن تساهم في تحقيق لحظة أخرى، إن التاريخ يجعلنا نحمل المسؤولية؛ ليس عن كل شيء، بل عن بعض الأشياء، ويعتقد الشاعر البولندي تشيسلاف ميلوش أن هذا المفهوم من المسؤولية سيقاوم الانعزال واللامبالاة، فالتاريخ يجعلنا نعيش مع الذين كافحوا وعانوا أكثر مما فعلنا.

إن تبنينا للسياسة الحتمية قد أدى إلى أن نشَّأنا جيلا منقطعاً عن التاريخ، ومن يدري كيف سيكون رد فعل هؤلاء الشباب الأميركيين الآن وبعد اتضاح أن الحتمية ووعودها لن تتحقق؟ ربما ينزلقون من الحتمية نحو الأبدية، ولكننا نأمل أن يصبحوا، بدلاً من ذلك، جيلاً تاريخياً، يرفض مصائد نظرتي الحتمية والأبدية التي سارت بهم نحوها الأجيال الأكبر سناً، وثمة شيء واحد مؤكد: إذا لم يبدأ الشباب في صنع التاريخ، فسوف يدمره سياسيو الأبدية والحتمية، وحتى يصنعوا التاريخ فإن على الشباب

الأمريكيين أن يتعرف بعضهم على بعض، وليست تلك غاية في حد ذاتها، ولكنها البداية.

قال هاملت: إننا في زمن مضطرب معوج، ويا له من قضاء جائر أن أكون قد ولدت لكي أقوِّم اعوجاجه! ولكنه ما يلبث أن يقول: لا، لنقوِّم اعوجاجه جميعًا.

المؤلف تيموثي سنايدر

- أستاذ التاريخ في جامعة ييل.
- له أبحاث ومؤلفات منها كتاب: أرض الدماء؛ أوروبا بين هتلر وبين ستالين، وكتاب: الأرض السوداء؛ المحرقة اليهودية: تاريخ وتحذير.
- البروفسور سنايدر عضو في اللجنة الأخلاقية في متحف ذكرى الهولوكوست بالولايات المتحدة الأمريكية، وزميل دائم في معهد العلوم الإنسانية في فيينا.